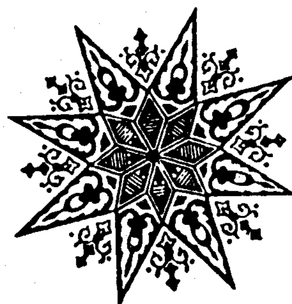
سيرة الرسول

في تصورات الغربيين

للمستشرق الألماني
جوستاف بفانمولر

ترجمة الأستاذ الدكتور
محمود حمدي زقزوق



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد : -

يعد هذا البحث امتدادا للبحث الذى سبق أن قمنا بنشره في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر ، والذى ترجمنا فيه بعض الفصول - المتعلقة بوجه عام بالدراسات الاستشراقية حول الإسلام - من كتاب المستشرق الألمانى جوستاف بفانمولر Gustav Pfannmueller « موجز فى أدب علوم الإسلام » Hand-buch der Islamliteratur الذى أورد فيه المؤلف أهم المراجع في علم الإسلاميات في الغرب ، وصنفها تصنيفا موضوعيا وقام بتقديم عرض مختصر لمضمون كل مرجع . وقد صدر الكتاب فى برلين عام ١٩٢٣م ، وأعيد نشره عام ١٩٧٤م ، ويقع في ٤٣٦ صفحة .

وفي الصفحات التالية نتابع ترجمة بعض الفصول المختارة المتعلقة بتصورات الغربيين لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام[1] . ونظرا لطول هذا الموضوع فسنضطر إلى تقسيمه إلى حلقات ، آملين أن نستكمله في أعداد قادمة إن شاء الله ، وذلك بهدف وضع صورة إجمالية - أمام الباحثين - للتصورات الغربية بصفة عامة والتصورات الاستشراقية بصفة خاصة في المجالات الأساسية المتعلقة بالإسلام ونبيه وتعاليمه ، لعل في ذلك ما يدفع بعض الباحثين إلى التوفر على دراسة هذا الجانب في التراث الغربى .

وإذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربى ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا ، فلا أقل من أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الأسباب التى من أجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا . ومن هنا تتضح حاجتنا الماسة إلى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا في السابق واللاحق دراسة عميقة واعية ، لأن هذه الكتابات تمس أقدس ما لدينا ، تمسنا في أخص خصائصنا وهو عقيدتنا التي نعتز

---

(١) انظر الصفحات من ١١٥ إلى ١٢٥ ، ومن ١٥٠ إلى ١٥٦ ، ومن ١٦٨ إلى ١٩٦ من كتاب بفانمولر .

بها ، وتمس شخص نبينا الذى جعله الله لنا « أسوة حسنة » ، وتمس قرآننا الذى جعله الله « تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين[١] » ، وتمس سنة نبينا التي هى مصدرنا الثاني للتشريع ، وبصفة عامة تمس تاريخنا كله .

وربما تكون بعض هذه التصورات الغربية عن الإسلام ونبيه قد دخلت إلى عالم النسيان ، وعفا عليها الزمن ، وخاصة ما يتعلق منها بأساطير العصور الوسطى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنها مع ذلك لا تزال وستظل جزءا أساسيا من تراث الغربيين لابد لنا من الاطلاع عليه ومعرفته .

ومن المعلوم أن الكتابات الغربية عن الإسلام ونبيه تتراوح بين الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الإسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ، بين الافتراء والإنصاف ، بين الاستعلاء والنزاهة ، بين الفحش الصارخ والتسامح العاقل .

ونحن إذ نترجم هنا هذه الصفحات بما تتضمنه أحيانا من أوصاف شنيعة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهجوم دنيء عليه وعلى دينه ، دون أن نحذف من ذلك شيئا ، فذلك لأننا على يقين من أنه لن يجدى نفعا إخفاء شيء من ذلك ، فهذا الكلام منشور بشتى اللغات الحية . وكما لا يجدى النعامة في شيء إخفاء رأسها في الرمال ظنا منها أنها ستكون بمنجاة من الصياد ، فكذلك لا يجدينا في شيء أن نتجاهل كل ما ينشر عنا وعن ديننا ، لأننا بذلك لن نستطيع أن نمحوه من تراث الغربيين ، أو نبعده من رفوف المكتبات في بلاد الغرب المختلفة ، أو نمنعه من الوصول إلى أيدى الباحثين .

وسيلاحظ القارئ في ثنايا النص الذي ننقله هنا تكرارا لبعض الأمور ، وخاصة للأسطورة التي نسجها خيال الغرب حول وفاة محمد صلى الله عليه وسلم . والسبب في هذا التكرار يرجع إلى أن بفانموللر يعرض هنا مؤلفات مختلفة تتردد فيها هذه الأساطير حيث يعزف الجميع نفس اللحن . ومن خلال هذا التكرار نتبين مدى الانتشار الواسع لمثل هذه الأساطير في تلك الأزمنة التي احتفلت بهذا اللون من الأساطير .

---

(١) سورة النحل : ٨٩

والفصول المختارة التي نترجمها هنا لم يضع لها المؤلف أية هوامش أو عناوين جانبية ، وسنسمح لأنفسنا بتقسيم الموضوع إلى فقرات ووضع عناوين خاصة لهذه الفقرات تحمل في أغلبها اسم الكاتب الذي تتناوله كل فقرة على حدة . وبالإضافة إلى ذلك سنقوم بوضع هوامش مختلفة نعرِّف فيها بالكتَّاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الإسلام ونبيه ، ونوضح فيها أيضا بعض المفاهيم الواردة في ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .

ترجمة وتعليقات

فيكتــــور شـــــوفــــان : ـ

يقدم لنا فيكتور شوفان[1] Victor Chauvin فهرسا مفصلا للكتابات التي صدرت حول محمد وذلك في الجزء التاسع من كتابه الشيق : « فهرس المصنفات العربية أو المصنفات المتصلة بالعرب » Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes .

وفي القسم الأول من هذا المؤلف يتناول شوفان المؤلفات الحديثة ، أى المؤلفات التي صدرت حول محمد في الفترة الممتدة من عام ١٨١٠ حتى عام ١٩٠٨ . وبجانب ذكره لعناوين هذه المؤلفات بكل دقة فإنه يقدم لنا أيضا بيانا بمحتويات المؤلفات ذات الأهمية ، ويشير إلى أهم ما وجه إليها من نقد .

أما القسم الثاني فإنه يتضمن ذكر المؤلفات السابقة على عام ١٨١٠ ، ويتناول بالتفصيل بصفة خاصة المؤلفات البيزنطية والأسبانية ومؤلفات القرون الوسطى .

وفي القسم الثالث يتناول رسائل جامعية حول بعض المسائل الخاصة مثل : الوفود ، بدر ، بحيرى ، الصرع[2] ، فاطمة ، نساء محمد ، شجرة النسب ،

---

(١) فكتور شوفان (١٨٤٤ ـ ١٩١٣) مستشرق بلجيكى ، تخرج في جامعة ليج ، وعمل أستاذا للعربية بها . وقد وضع الفهرس المشار إليه في اثنى عشر جزءا ، أصدر منها أحد عشر جزءا من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٩ ، ونشر (بولن) الجزء الثاني عشر في عام ١٩٢٢ .

(٢) لعل القارئ يلاحظ هنا أن موضوع « الصرع » مقحم بين هذه الموضوعات التي تتحدث عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمر هنا ربما يدور حول خطأ مطبعى أو خطأ في الترجمة ! ولكن الأمر ليس كذلك . فالحديث عن الصرع هنا حديث مقصود ، إذ يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحى الله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنها كانت عبارة عن نوبات من الصرع تعتريه بين الحين والحين ، وذلك انطلاقا من مبدأ عدم الاعتراف بنبوته ، وبالتالى فليس هناك أصلا ـ في زعمهم ـ وحى كان يأتيه .

وهذا الموقف يدخل في باب التعصب الأعمى الذى هو نفسه مرض لا أمل في شفائه ولا جدوى من علاجه . وسنعود للحديث مرة أخرى عن هذا الموضوع في تعليق آخر على كلام يدور حول نفس المعنى .

المعجزات ، وفاة محمد ، مولده ، نبالة نسبه ، أسماء محمد ، صورته الجسمية وأخلاقه . . . . الخ[1] .

وأما القسم الرابع فإنه يخصصه للأساطير الغربية عن محمد ، كما يخصص القسم الخامس للحديث عن محمد في الأدب . أما ختام الكتاب فيتكون من تقييم للمؤلفات وإضافات وتصويبات وملحق (يتضمن قائمة بأسماء المؤلفين العرب من كتاب السيرة المحمدية طبقا لما أورده بروكلمان) ، وبيان بالمحتويات .

وقد بذل شوفان جهدا هائلا في جمع المادة ، ولكن الموضوعات قد تم ترتيبها للأسف ترتيبا أبجديا وليس حسب تسلسلها الزمني .

وبالمناسبة فإن كل المؤلفات حول الإسلام تكاد جميعها أن تكون مشتملة على أوصاف لحياة محمد (ص ١٦٤ - ١٩٨[2]) وعلى مادة ببليوجرافية ثرية عن حياة مؤسس هذا الدين وأعماله .

مؤلفات أخرى : -

وفي بحثه عن (محمد وأصول علم الإسلاميات) Mohomet et les origines de l'islamisme يصف « رينان[3] » الأفكار المختلفة - التي كونتها العصور والشعوب المختلفة عن محمد - وبيان الصلة بينها ، بأنها عمل مشكور من جانب علم التاريخ .

---

(١) أورد شوفان هذه المسائل حسب الترتيب الأبجدى في الفرنسية . ولهذا يتحدث عن وفاة محمد صلى الله عليه وسلم قبل حديثه عن مولده . وقد انتقد بفانمولر هذا الترتيب - كما سيأتى بعد قليل - .

(٢) هذه إشارة إلى صفحات من كتاب (بفانمولر) الذى نترجم منه هذه الفصول ويدور حديث بفانمولر في هذه الصفحات حول المؤلفات الحديثة في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) إرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسى . من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) وقد ترجمه إلى العربية عادل زعيتر . وفيه يذهب رينان إلى القول بأنه لولا ابن رشد ما فهمت فلسفة أرسطو . ومن مؤلفاته أيضا : تاريخ الأديان وحياة يسوع (ألفه في أحد الأديرة اليسوعية في لبنان) .

وقد كان رينان أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الآرى كما صرح بذلك في كتابه تاريخ اللغات السامية . تعرف على جمال الدين الأفغاني في باريس ودار بينهما نقاش حول الإسلام في جريدة (الديبا) الفرنسية . (انظر المستشرقون للعقيقى ١٩١/١ ، وزعماء الإصلاح لأحمد أمين) .

ولكن رينان نفسه لم يقدم لنا إلا بعض الإشارات .

ويقدم لنا سنوك هورجرونيه[1] S . Hurgronje في حديثه عن سيرة محمد التي قام بتأليفها جريمه[2] Grimme - يقدم عرضا مختصرا عن أقدم كتب السيرة المحمدية (في أوربا) . وينطلق هورجرونيه في ذلك من كتاب ج . هـ . هوتنجر[3] Hottinger « تاريخ الشرق Historia orientalis » (الصادر في زيوريخ عام ١٦٥١) . والهدف الذي يضعه هوتنجر نصب عينيه ليس هو تقدم التفسير وتقدم التاريخ العام فحسب ، وإنما هو بالأحرى يرمى إلى بلوغ هدفين آخرين : ففى مقابل الاتهام الذى وجهه الكاثوليك إلى دعاة الإصلاح بأنهم ينهجون نهج تعاليم الإسلام بطريقة خفية يقوم هوتنجر - من ناحية - بمحاولة البرهنة على عكس ذلك ، أى البرهنة على أن حجج بلارمين[4] Bellarmin للدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قد استعيرت من علم العقيدة الإسلامى . ثم رغب هوتنجر (من ناحية أخرى) كما فعل ببلياندر Biblian-der من قبل (ص ١٤٧[5]) بنقضه للقرآن - في الإسهام في مكافحة الخرافات

---

(١) سنوك هورجرونيه (١٨٥٧ - ١٩٣٦) مستشرق هولندى . يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفي طليعة الرواد في دراسات الفقه الإسلامى والأصول والتفسير والحديث في أوربا . له بحوث ودراسات عديدةعن الإسلام وتاريخه وشريعته ، وحول طابع الإسلام وانتشاره ، وإبراهيم في القرآن ، والإسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبى الدينية . ومن مؤلفاته أيضا : الحج إلى مكة ، والمهدى ، ومكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر .

(٢) هـ . جريمه (١٨٦٤ - ١٩٤٢) كان أستاذا للغات الشرقية في مونستر بألمانيا . ومن أعماله : محمد (في جزأين) ، وترجمة القرآن ، وله دراسات عديدة حول : اللغات السامية ، وعلماء الكلام ، والإسلام واليهودية ، واسم محمد ، وغير ذلك من موضوعات .

(٣) هوتنجر (١٦٢٠ - ١٦٦٧) مستشرق سويسرى ، كان أستاذا للغات السامية في كل من زيوريخ وهايدلبرج . ومن أعماله : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(٤) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان في طليعة المهاجين للإصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

(٥) يحيل بفانمولل هنا إلى ص ١٤٧ من كتابه ، وقد أشار هناك إلى أن كتاب القسيس السويسرى بيلياندر - والذى صدر عام ١٥٤٣م في ثلاثة مجلدات - يمثل الوضع الذى وصل إليه الجدل كله ضد الإسلام حتى ذلك العصر ، كما يمثل حاصل هذا الجدل . فالكتاب لا يشتمل فقط على الترجمة اللاتينية للقرآن والتي تمت قبل ذلك بأربعمائة عام ، وإنما يشتمل أيضا على عدد كبير من الكتابات المضادة للقرآن وللإسلام ابتداء من عصر بطرس الموقر حتى عصر الإصلاح الدينى .

المحمدية والسيادة التركية التي قامت مع الدين وسقطت معه . ولكن كتاب هوتنجر كله مملوء بالأحكام السابقة التي كان لا يزال يحس بها حينذاك عالم من العلماء ضد المذهب المحمدى .

ونصادف أيضا نفس النفور الداخلى إزاء محمد وتعاليمه لدى الأب ماراتشى[1] الذى قام بنشر ترجمة لاتينية للقرآن في عام ١٦٩٨ مع نقض مفصل للقرآن (ص ٢١٤) ، وكذلك نجد هذا النفور لدى بريدو[2] rideaux الذى جعل كتابه (حياة محمد) مرآة تعكس الصورة الخاصة لكل من الكفار والزنادقة وأصحاب مذهب التأليه الطبيعى والإباحيين .

ريلاند :-

أما الكتاب الصغير الممتاز الذى ألفه هادريان ريلاند[3] في عام ١٧٠٥ بعنوان (الديانة المحمدية) De religione Mohammedica (ص ٦٣ وما بعدها) فإنه

(١) يحيل بفانمولل هنا أيضا إلى ص ٢١٤ من كتابه ، وهناك يشير إلى أن الأب الإيطالى لودفيج ماراتشى أمضى أربعين عاما في دراسة القرآن وكتب التفسير العربية لكى يحارب محمدا بنفس سلاحه . وقد كانت حصيلة هذه الدراسة هذا العمل « الضخم » الذى أنجزه ، والذى تضمن النص العربى الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش توضيحية ونقض لكل فقرة قرآنية على حدة . وقد أصدر ماراتشى قبل ذلك - في عام ١٦٩١ - كتابا حول نقض القرآن ، قدم فيه لمحة عن حياة محمد وعن القرآن ثم برهن - كما يزعم - على بطلان الإسلام وحقيقة الديانة المسيحية .

(٢) هو : همفرى بريدو (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مستشرق انجليزى . ويعلق نجيب العقيقى على كتاب حياة محمد لبريدو بقوله : إنه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » (المستشرقون ٢/٤٥ الطبعة الرابعة) .

(٣) هادريان ريلاند (١٧٧٦ - ١٧١٨) مستشرق هولندى ، كان أستاذا للغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا . ومن مؤلفاته التي كان لها صدى بعيد في أوربا كتابه عن الإسلام في مجلدين ، أحدهما عن الديانة الإسلامية والثاني حول تصويب فكرة الأوربيين الخاطئة عن الإسلام . وقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات أوربية . وله أيضا : تعليم المتعلم للزرنوجى ، وفي مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية المطبوعة في أوربا حتى أيامه ، وله كتاب في الجهاد ، والجغرافيا والآثار في فلسطين . (المستشرقون ٢/٣٠٤) .

ويحيل بفانمولل هنا إلى ص ٦٣ وما بعدها من كتابه . وهناك يبين بفانمولل أن ريلاند كان أول من قام بعرض علمى للإسلام في أوربا . ويشير إلى ردود الفعل التي أحدثها كتاب ريلاند عن الإسلام . (انظر ترجمتنا لذلك فى ص ١٠٧ وما بعدها في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر) .

يفصح عن طابع مختلف تمام الاختلاف . فالإهداء المختصر لشقيقه والمقدمة الطويلة التى لا تزال قراءتها حتى اليوم على جانب من الأهمية يبينان لنا كيف كان هذا العالم مدفوعا بحبه للحقيقة وبحسه للعدالة التاريخية إلى رسم صورة أمينة للإسلام .

هل من الممكن أن تجد ديانة متناقضة ـ كما يصفها المؤلفون المسيحيون ـ ملايين الاتباع ؟

دعوا المسلمين أنفسهم يصفون لنا دينهم !

وفضلا عن ذلك فإنه يتحتم على المرء أن يعرف الإسلام جيدا لكى يستطيع أن يحاربه بطريقة فعالة . ولكن ضرورة محاربته تنمو مع كل يوم لأن علاقات الأوروبيين بالمحمديين ـ في تركيا وأفريقيا وسوريا وإيران وجزر الهند التابعة لهولندا ـ تتسع دائرتها باستمرار . وفي وسع المرء عن طريق النقاش الديني ـ أن يكسب المسلمين إلى صف العقيدة الحقة ، وهذا أفضل بكثير من القيام بتوجيه الشتائم لهم بطريقة حمقاء .

والمعرفة الدقيقة بالإسلام وأتباعه ستجعلنا نضع مكان الكبرياء الساذجة الإحساس بالشكر لله الذى أنعم علينا من فضله بالمسيحية . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم يدر بخلد ريلاند أن يقوم بتمجيد الإسلام . فهو بالأحرى يستفظعه ـ كما يوضح هو ذلك[1] ـ إنه يريد فقط أن يتعرف المرء على الإسلام تعرفا حقيقيا ، وألا يكون لنفسه عنه تصورات غير معقولة .

بولانفلييه : ـ

ولم يتأخر رد الفعل طويلا ضد علماء من أمثال ماراتشى وبريدو اللذين لم يستطيعا أن يريا في الإسلام أى شيء طيب . ففى عام ١٧٣٠ ظهر في لندن كتاب (حياة محمد) ـ وهو كتاب لم يكتمل ـ من تأليف الكونت بولانفلييه Boulainvillier o وقد

(١) نعتقد أن صدور مثل هذه الأوصاف من ريلاند كان مجرد ذر للرماد في العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بمثل هذه المبررات ، فحرمت تداول الكتاب ، لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس (راجع أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، ص ٣٣ ـ ٣٥ ، الدوحة ١٤٠٤هـ) .

مجد المؤلف فيه مؤسس الإسلام بوصفه واحدا من الحكماء ، وأحل دينه في جوانب كثيرة في محل أرفع من المسيحية المألوفة .

ولم يكن الأمر الذى دفع هذا الكونت إلى هذا المديح لنبى مكة هو فقط المحبة الخالصة للحقيقة والعدالة ، فقد صور لنفسه ـ بمساعدة بعض المؤلفات الأوروبية ـ نبيا يرضي حاجة في نفسه ، وكان يرى في محمد نبيا قام بتمدين شعبه وأنشأ دينا عقليا ، ويقرر بولانفلييه بسرور خفى أن محمدا ، في الوقت الذى يحترم فيه تقوى الزهاد والرهبان ، يندد بالكهانة الدينية أشد تنديد . وهذا الميل المعادى لرجال الكهنوت في رواية بولانفلييه سرعان ما اكتشفه معاصروه أيضا .[1]

جان جانييه : ـ

وبعد ذلك بوقت قصير رأينا جان جانييه[2] Jean Gagnier يتجه ضد بولانفلييه وضد طريقة عرضه المنحازة ، وفي عام ١٧٢٣ قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد ـ حديثة نسبيا ـ إلى اللغة اللاتينية . وبعد قيام الكونت بولانفلييه بنشر روايته شعر جانييه بأنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزة ـ حسب المصادر المتوافرة لديه ـ

---

(١) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد باعتباره رسولا للعناية الإلهية (انظر الشرق والإسلام في أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢١) ، ويحاول بفانمولل هنا أن يقلل من شأن النظرة الإيجابية لبولانفلييه إلى الإسلام ونبيه ، وذلك بارجاعها إلى ميول ذاتية ونزعة معادية للكنيسة ، وفيما يلي سنجد أيضا جانييه يصف محاولات بولانفلييه بأنها مبالغات مضحكة .

وهكذا نجد أنه كلما اقترب كاتب غربي من رؤية حقيقة الإسلام انبرت الأصوات من كل مكان في الغرب تتهمه بالمبالغة أو الغرض أو العداء للكنيسة وما شاكل ذلك من اتهامات ، فهل هذا من العلم والموضوعية في شيء ؟

ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية إلا اذا أبرزت مثالب وأظهرت نقائص تلصق بالإسلام ؟

إن هذا حقا موقف غريب ليس له مبرر علمى أو أخلاقى .

(٢) جان جانييه (١٦٧٠ ـ ١٧٤٠) كان أستاذا للعبرية ثم العربية في أكسفورد . قام بترجمة رسالة الرازى عن الجدرى ، ونشر من كتاب أبي الفداء « مختصر تاريخ البشر » (سيرة النبى) متنا وترجمة لاتينية ، ثم نشر المختصر كله مع ترجمة فرنسية . وقد ألف كتابا عن حياة محمد في جزأين بالفرنسية (امستردام ١٧٣٢) . راجع : المستشرقون ٢/٤٥ .

ماذا يقول المحمديون عن نبيهم ، وذلك لكى يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحماس الحاقد لكل من ماراتشي وبريدو من ناحية والمبالغات المضحكة من جانب الكونت بولانفلييه من ناحية أخرى . ولكن مقدمة كتاب جانييه ، التي يصف فيها محمدا بأنه أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود لله ، تبين لنا ماذا ينبغى أن يفهم المرء من « حياده[1] » .

سيل : -

أما سيل[2] Sale الانجليزى فإنه في مقدمته التمهيدية التي صدر بها ترجمته للقرآن قد حاول في البداية تقدير محمد تقديرا عادلا ، ولكنه لم ينجح في القضاء على الأحكام السابقة السائدة ، فقد ظل محمد مدة طويلة ينظر إليه على أنه مضلل .

---

(١) يفهم المرء من ذلك بطبيعة الحال عداوة صريحة وتحيزا مبدئيا ، إذ ما معنى أن يقدم جانييه لكتابه بهذه الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة ؟

إن الأمر هنا ليس له لدينا إلا تفسير واحد ، وهو قصد توجيه القارىء من بادىء الامر لقراءة الكتاب في ضوء هذه الأحكام ، وبهذا يؤثر جانييه على القارىء ويضع قيدا على حريته ، ويقدم له بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم . وهذا ليس من العلم ولا من الإنصاف في شيء ، ولا يمت إلى الأمانة العلمية بسبب .

ولا يشفع لجانييه بعد ذلك أنه - كما يقول بفانمولل ص ١٧١ - كان يعتمد في كتابه اعتمادا تاما على المؤلفين العرب ، ويدعهم يتحدثون بأنفسهم ، مبتعدا تماما عن المدح أو الذم ، متجنبا إضافة أى شيء من آرائه ، وأن كل همه كان هو تعريف الأوروبيين بمحمد من واقع ما يرويه المسلمون ويعتقدون .

فالتناقض واضح بين المقدمات والنتائج ، وقصد الإساءة هو الذى يوجه جانييه في كتابه . وهكذا نرى أن « الحياد » الذى يعنيه هو مجرد لفظ فارغ لا معنى له .

(٢) جورج سيل (١٦٩٧ - ١٧٣٦) مستشرق انجليزى ، ترجم القرآن إلى الانجليزية ونشرت الترجمة في لندن عام ١٧٣٤ وقد اشتملت على حواشى وشروح ومقدمة مسهبة عن الدين الإسلامى تضمنت الكثير من الإفك واللغو والتجريح .

فولتير : -

أما فولتير[1] فقد كتب روايته المأساوية « محمد أو التعصب » دون أن يراعى الحقائق التاريخية . وقد كان فولتير نفسه مقتنعا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضا حادا مع التاريخ . ومع ذلك فقد أراد أن يعرض على الجمهور شخصية تارتوف[2] Tartuffe ممسكا سلاحا في يده ، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يعير محمدا هذا الدور . ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك هو أن محمدا يمثل التعصب والتضليل الدينى[3] .

وهكذا كانت أوربا تموج بآراء كثيرة حول عمل محمد ، ولكن الحس التاريخى الحقيقى الذى يتمتع به خيرة علماء عصرنا كان لا يزال معدوما تماما .

---

(١) فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) فيلسوف وأديب فرنسى شهير ، يعد قطب عصر التنوير في فرنسا .

(٢) تارتوف اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق في إحدى مسرحيات الأديب الفرنسى الشهير موليير (١٦٢٢ - ١٦٧٣) والتى تحمل نفس الاسم أيضا .

(٣) إنه لأمر غريب حقا أن يلجأ فولتير إلى التشهير بالنبى عليه الصلاة والسلام جاعلا منه في هذه الرواية التى مثلت على المسرح « منافقا لا يعرف الحياء ومضللا وظالما تدفعه النوازع الحسية والتعطش للدماء الخ » وهو يعلم تمام العلم أن كل ذلك غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية . ولكن فولتير أراد بذلك أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة على طريقة « إياكِ أعنى واسمعى يا جارة » ، ولذلك يقول بفانموللر : « لكن فولتير لم يرد إطلاقا بمأساته أن يصور شخصية محمد التاريخية ، وإنما أراد بذلك فقط أن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتى ، وضد الخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من تعصب » .

وقد مثلت المسرحية في مدينة « ليل » عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدى فرانسيز » في باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمرا دعا إليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها حينذاك (انظر : الشرق والسلام في أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢٣) .

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير في مقالته Essai Sur les moeurs يقدم لنا صورة أخرى يصف فيها محمدا بانه « الرجل العظيم الذى جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والكاهن ، والذى لعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض » (انظر بفانموللر ١٧٢) . وفي وسط هذا البحر المتلاطم بأمواج التخبط الواضح والتناقض الصارخ لم يكن هناك مكان للحقيقة التاريخية والموضوعية النزيهة . ومما هو جدير بالذكر أن فولتير كان يعد من الملاحدة حينا ومن منكرى النبوات عامة في أكثر الأحايين .

جوستاف فايل : ـ

وعندما نشر الأستاذ جوستاف فايل[١] في عام ١٨٤٣ كتابه عن سيرة محمد كان في وسعه أن يقول بحق في مقدمته إن آخر أسلافه الذى كان لمؤلفه قيمة شخصية كان جانييه الذى ألف كتابه قبل ذلك بقرن ونصف .

وقد قام فايل بخطوة كبيرة إلى الأمام ، وذلك بسعيه في رسم صورة أكثر تاريخية لأصول الإسلام على أساس من مصادر أكثر جودة وأوفر عـددا مما لم يكن متـوافرا لأسلافه . وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا في خلال الخمسين عاما التي مضت بعد ظهور كتاب فايل ، ولكن ذلك لم يقلل في شيء من الخدمة التي أداها فايل بوصفه أول من قام ببحث نقدى تاريخى حول هذا الموضوع . والنتيجة التي ينتهى إليها فايل في كتابه هى أن محمدا يمكن أن يرى أيضا في أعين غير المحمديين بأنه « رسول الله » .

كوسان دى برسيفال : ـ

ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلا إلى مثل هذا التقدير . وهكذا يوضح كوسان دى برسيفال[٢] Caussin de Perceval في « مقالاته » أنه من غير المعقول ألا يستطيع المرء أن يرى في محمد إلا مخادعا ذكيا أو عبقـرية طمـوحة . لقـد كان

---

(١) يأتى التعريف بجوستاف فايل لدى نجيب العقيقى (المستشرقون ٢/٢٦٦) تحت اسم سيمون فـايل ، ولعله سهو ، فالمعلومات الواردة تحت هذا الاسم تخص جوستاف فايل (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩) وهو مستشرق المانى شهير ، قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية . ومن مؤلفاته التي تعنينا هنا الكتاب الذى يشير إليه بفانموللر وهو « محمد النبى : حياته وتعاليمه » شتوتجارت ١٨٤٣ .

(٢) هو : أرمان كوسان دى برسيفال (١٧٩٥ ـ ١٨٧١) كان أستاذا للعربية في معهد فرنسـا وعضوا في المجمـع اللغوى . ومن بحوثه : وقعة بدر ـ مرحلة من حياة الرسول (المجلة الاسبوعية ١٨٣٩) وباكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات (١٨٤٧) وقد تناول فيه العرب قبل الإسلام ثم عصر النبى ، ثم انضواء القبائل تحت راية الاسلام ـ (المستشرقون ١/١٧٧) .

محمد ـ حسب رأيه ـ على وجه الخصوص إنسانا مقتنعا بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على إحيائه .

وقد كانت المصادر التي استطاع هؤلاء الكتاب أن يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جدا بالمقارنة إلى ما كان متوافرا لأسلافهم ، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جدا مما أصبح متيسرا لنا في خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة[١] . وبالاضافة إلى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة في منهج بحوثهم .

وقد عرف كل من فايل وكوسان ـ مثلما عرف أسلافهما ـ أن المؤلفات العربية غالبا ما دخلت عليها يد التغيير لأسباب عقدية أو لأسباب حزبية طائفية . وقد ميزا ببصيرة أكثر من ذى قبل الجيد منها من الردىء . ولكنهما لم يلاحظا ملاحظة كافية أن سيرة محمد ـ على الأقل ما ينتسب منها إلى الفرق الإسلامية ـ قد تطورت وأعيد تشكيلها بنفس القدر الذى تطور به الدين المحمدى نفسه ، الأمر الذى يجعل التقدير الدقيق للمصادر لا يمكن أن يتم إلا على أساس من الدراسة العميقة لتاريخ « الكنيسة » المحمدية[٢] .

---

(١) يلاحظ أن بفانمولار قد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣ .

(٢) استخدم بفانمولار هنا تعبير « الكنيسة المحمدية » وهو مصطلح غريب عن الإسلام وعن الدراسات الإسلامية بوجه عام . والمعروف لكل المستشرقين أنه لا توجد في الإسلام مؤسسات كهنوتية لها سلطات روحية على أتباعها مثلما هو الحال بوجه خاص في الكنيسة الكاثوليكية .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن هناك حتى عصريهما من لاحظ ملاحظة كافية الفرق بين « تعاليم محمد » وبين « الإسلام » الذى انبثق عنها[1] . ولو كان هناك من لاحظ ذلك لكان يطيب للمرء عندئذ أن يتحدث عن « دين محمد » وليس عن « تعاليمه » ولكانت الشهادة المسموح بها لهذا الدين هى القرآن وحده ، وذلك بتفسير تاريخى طبقا لأقدم الأحاديث . وبدلا من معرفة هـذا الفرق راح المـرء يخلط بين القـديم والحديث وراح يمدح محمدا أو يذمه لأمور لم يفكر فيها محمد على الإطلاق .

وقد تم أخيرا فتح الطريق الصحيح عن طريق المؤلفات التي ظهرت في وقت واحد تقريبا لكل من نولدكه وموير واشبرنجر .

(١) يثير بفاتمولر هنا قضية غريبة ، حيث يفهم أن الإسلام شيء وتعاليم محمد شيء آخر ، فدين محمد وهو الإسلام يختلف عن تعاليم محمد ، على اعتبار أن الإسلام قد طرأت عليه تطورات مختلفة لم يكن لها وجود في التعاليم الأصلية للنبى عليه الصلاة والسلام . وهذا اضطراب فى الفهم لا أساس له . فالإسلام وتعاليم محمد شيء واحد ومصدرهما هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

أما ما طرأ على الفكر الإسلامى (وليس على الإسلام) من تطورات مختلفة على مر العصور ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب أو فرق إسلامية مختلفة فهذا أمر لا يمس الإسلام أو تعاليم محمد في شيء ، لانه يتعلق فقط بأفهام أصحاب هذه المذاهب والفرق ، ولا يتحمل الإسلام مسئولية ما قد يكون في هذه الأفهام في بعض الأحيان من خلط أو اضطراب في الفهم .

وعلى ذلك فإن التفرقة الصحيحة التي كان على بفاتمولر أن يدركها هى بين الإسلام والفكر الإسلامى ، على اعتبار أن الإسلام وحى الله لنبيه ليقوم بتبليغه وتبيينه للناس « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » أما الفكر الإسلامى فهو فكر إنسانى يخطىء ويصيب ويعتريه التطور والتغيير . وقد فتح الإسلام أمام المسلمين طريق الاجتهاد في الأحكام الفرعية ، وقرر أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران ، وذلك تشجيعا على الاجتهاد والبحث عن الحلول لكل ما يجد في المجتمع الإسلامى من مشكلات .

موير :-

أما موير[1] Muir فإنه على الرغم من أرثوذوكسيته الانجليزية فإنه قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معينا لرجل (يقصد محمدا) ظهر له أنه كان ضحية للشيطان[2] . وعلى الرغم من أن موير كانت تنقصه المادة الضرورية لسيرة حقيقية فإن كتابه يتضمن مع ذلك سلسلة من الأبحاث النقدية التي لها قيمة باقية .

شبرنجر :-

أما كتاب شبرنجر[3] Sprenger « حياة محمد وتعاليمه » فإنه يبرهن من عنوانه على أن المؤلف لم يفرق تفرقة كافية بين دين محمد وبين الإسلام . وغالبا ما وجدت الخدمات الجليلة التي قام بها اشبرنجر ما تستحقه من تقدير . ولكن فيلهاوزن وحده هو الذى قدم لنا تقديرا نقديا حقيقيا لكتاب شبرنجر (انظر : محمد في المدينة لفيلهاوزن ، برلين ١٨٨٢ ص ٢٠ وما بعدها) . وقد خلص اشبرنجر إلى الاقتناع بأن

---

(١) السير وليم موير (١٨١٩ - ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى ، عمل في الهند ثم اختير رئيسا لجامعة أدنبره . ومن مؤلفاته : حياة محمد ﷺ في أربعة أجزاء ، وقد صدر في لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ . وله أيضا حوليات الخلافة ، ومصادر الإسلام ، ودولة المماليك في مصر .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة إلى مثل هذا التعاطف المردود على صاحبه . وقد سبق لمشركى مكة أن زعموا أن محمدا به مس من الجن ، فلا جديد في زعم موير فهو ترديد لمزاعم قديمة في صورة أخرى .

(٣) الويس شبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣) مستشرق نمساوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٩٣٨ ، عمل في الهند ثم عمل أستاذا للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرا . نشر الكثير من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربي على عهد الخلفاء ، وحياة محمد في ثلاثة أجزاء . وقد صدر الجزء الأول في (الله أباد) عام ١٨٥١ بالانجليزية ، ثم صدرت الأجزاء الثلاثة بالألمانية في برلين من ١٨٦١ حتى ١٨٦٥ ، وأعيد طبعه عام ١٨٦٩ . ويعلق المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » على كتاب شبرنجر (حياة محمد) بأنه كتاب جاء مخيبا للآمال في أكثر من ناحية وأنه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمى (انظر : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية لبارت ، ترجمة مصطفى ماهر ص ٢٣) .

محمدا كان إنسانا هستيريا[1] . فلنترك جانبا ضعف الوقائع التي يستند إليها التشخيص ! إنه على كل حال سيتحتم على المرء أن يعترف بأن القيمة الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل في هذا الذى يختلف فيه عن الهستيريين الآخرين ، وليس في الحالة المرضية التي يشترك فيها معهم .

---

(١) سبق أن أشرنا في تعليق سابق إلى زعم بعض المستشرقين بأن ظاهرة الوحى للنبى لم تكن إلا نوبات من الصرع تعتريه ، وينهج اشبرنجر هنا نفس المنهج حين يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مصابا بالهستيريا . وأساس هذه المزاعم كلها يكمن في محاولة استبعاد القول بنبوته وإنكار تلقيه الوحى من عند الله .

وما دام هذا هو الموقف المبدئى لهذه المزاعم فلن يستطيع القائلون بها فهم ظاهرة الوحى . ولو طبقنا هذه المزاعم على جميع الأنبياء والمرسلين لأبطلنا الأديان السماوية جميعا .

وهذا الموقف ليس أمرا جديدا فقد سبق لمشركى مكة أن اتخذوا موقفا مماثلا من محمد صلى الله عليه وسلم ، كما اتخذ المعاندون من أقوام الأنبياء السابقين مواقف مشابهة . والقرآن نفسه يخبرنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام والمرسلين من قبله قد وجهت إليهم تهمة الجنون من أقوامهم . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (الحجر : ٦) وقوله : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (الذاريات : ٥٢) ، وقوله : « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » (الدخان : ١٤) ، وقوله « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » (القمر : ٩) ، ولسنا هنا في حاجة إلى مناقشة مستفيضة لأسطورتى الصرع والهستيريا ، فكل من يعرف أعراض هذين المرضين وما لهما من آثار في شخصية المصاب بأى منهما ، ويعرف السيرة الصحيحة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعرف حتما أن هذه المزاعم لغو باطل وافتراء كاذب لا يستحق أن يأخذه المرء مأخذ الجد .

وقد أساء المستشرقون عن جهل أو عن عمد فهم الظواهر التى كانت تصاحب الوحى عند نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من أنه ـ كما يقول الرسول نفسه ـ كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وكما تقول عائشة : « رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » كما روى ذلك البخارى في صحيحه في حديث مشهور .

ولو تأمل الباحث المنصف في أن تلقى الوحى يعنى الانسلاخ عن حال البشرية إلى حال الملكية ، لعرف أن هذه الظواهر المصاحبة لنزول الوحى ليست إلا نتيجة لهذا الانسلاخ .

وقد كان الكتاب البيزنطيون ، وبوجه خاص ثيوفانس Theophanes ، هم أول من أذاع في الغرب أسطورة الصرع . (انظر ص ٥٢٢ من : (Handwoerterbuch des Islam) فقد كانوا هم المصدر الوحيد الذى تلقى منه الغرب معلوماته الأولى عن الإسلام ، وإليهم ترجع أغلب الأساطير التى شاعت في الغرب حول محمد صلى الله عليه وسلم في العصور الوسطى . ويعترف المستشرقون أنفسهم بأن البيزنطيين كانوا مصدرا غير موثوق به فيما يتعلق بالإسلام ، كما يعرض علينا ذلك بفانمولر في موضع آخر من هذا البحث .

نولدكه : -

وأما كتاب نولدكه[1] « تاريخ القرآن » فإنه يفى بكل متطلبات العلم . إنه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الإسلام ، ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال . أما كتاب « حياة محمد » لنفس المؤلف فإنه كتاب شعبى ومختصر ، وهو يقينا أفضل كتاب من هذا النوع ، ولكنه لا يستوفى سيرة النبى .

الكم والكيف : -

ومنذ أن مهد كل من موير واشبرنجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهر كتاب واحد له قيمة إبداعية عن حياة محمد . وهناك عدد كبير من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء بدرجات متفاوته في الفهم ، وعرضوها على الجمهور في صورة دراسات لا تحصى ، إما دون أى تغيير وإما باضافة شيء من عندهم . وهذا أحيانا ما يكون أكثر سوءا .

ويظهور المؤلفات المشار إليها نما عدد المواد المتوافرة لسيرة محمد . وقد أصبح من الميسور عن طريق الطباعة الاطلاع على نصوص عربية هامة بأعداد كبيرة . ومن مؤلفات العلماء الأوربيين يكفى أن نذكِّر هنا بكتاب جولدتسيهر[2] « دراسات محمدية » وكتاب فيلهاوزن[3] « لمحات وأعمال أولية » .

---

(١) تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له انتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الإسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » في هانوفر عام ١٨٦٣ .

(٢) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، يعد من كبار أئمة الدراسات الإسلامية في أوربا . كان واسع الاطلاع غزير الإنتاج بلغات مختلفة . وقد عرف قراء العربية له كتابين هما : العقيدة والشريعة في الإسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاسلامى .

(٣) فيلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨) مستشرق ألمانى ، له دراسات إسلامية عديدة منها : السيادة العربية ، والخوارج والشيعة ، والدولة العربية وسقوطها من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية . وقد ترجمت هذه الكتب الثلاثة إلى العربية وله أيضا : محمد في المدينة ، والتمهيد للتاريخ الإسلامى في ستة أجزاء ، ودستور المدينة أيام النبى ، والأحزاب المعارضة في الإسلام قديما دينا وسياسة ، وغيرذلك من دراسات (المستشرقون ٢/٣٨٦ وما بعدها) .

وكل من يشعر لسبب أو لآخر أنه يتحتم عليه أن يكتب سيرة محمد من جديد لا يستطيع أن يقتصر اليوم على النظر إلى الأمور القديمة من زاوية جديدة ، وإنما يجب عليه أن يضيف شيئا جديدا إلى ما أتى به سابقوه .

وإلى هذا الحد كان العرض الذى قدمه سنوك هورجرونيه في عام ١٨٩٤ .

بيير مارتينو : -

يقدم لنا بيير مارتينو Pierre Martino نظرة تاريخية على بدايات سيرة محمد في فرنسا ، وذلك في بحثه عن « محمد في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر » ، وهذا البحث مأخوذ من كتاب كبير للمؤلف بعنوان « الشرق في الأدب الفرنسى في القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر في باريس عام ١٩٠٦ .

وفي الفصل الأول من هذا البحث الذي جعل عنوانه « ما قبل القرن السابع عشر » يقدم مارتينو نظرة سريعة على رأى العصر الوسيط في محمد ، مترسما في ذلك خطا دانكونا Dancona وباسيه R . Basset ودوتيه[1] outte وقد كان للحروب المريرة بين المسيحيين والمحمديين في عصور الحروب الصليبية أثرها في عدم ظهور نظرة موضوعية عن النبى وأعماله . ففى الرواية التي كتبها ألكسندر دوبون A . du Pont عن محمد « Roman de Mohomem » يظهر محمد بوصفه أحد قطاع الطرق ،

(١) سيأتى الحديث فيما بعد عن كل من دانكونا وباسيه ودوتيه في نهاية هذا البحث .

وقد أصابه مس من الشيطان ويقوم بفعل كل نوع من أنواع الأفعال الدنيئة والتضليل[1] .

أما كتاب القانون لدى المسلمين Livre de la loi au Sarrasin فإنه يتضمن تجميعا لأكثر خرافات المحمديين زراية . وحقيقة الأمر هى أن ما كان يعرفه المرء عن المسلمين كان شيئا قليلا مثل الوضوء وبعض الأشياء عن الصلاة وتعدد الزوجات . وقد كان ذلك تقريبا هو كل شيء . وقد كان هناك اعتقاد بأن محمدا قد أكلته الخنازير ذات يوم عندما كان مخمورا . وليس من العجيب إذن أن المحمديين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير ! ولكى يجعل المرء من النبى المزيف شخصية مكروهة تماما فقد عمدوا إلى جعله بسذاجة بالغة مسيحيا سيئا ، أى زنديقا مارقا . أجل ، لقد جعلوا منه كاردينالا أسلم نفسه للشيطان ليأسه من أن يظفر بمنصب البابا ! وقد كان حكم العصر على شخصية محمد كلها هو الانغماس في المتع والخديعة[2] .

أما الفصل الثانى (من بحث مارتينو) الذى يحمل عنوان « الدراسات الإسلامية الأولى » فإنه يتناول بالبحث أولا كتاب ميشيل بودييه Michael Baudier « تاريخ

---

(١) سيأتى الحديث مرة أخرى عن هذه الرواية في موضع آخر من هذا البحث . ونود أن نشير هنا ـ كما سيذكر بفانموللر فيما بعد ـ أن أساس هذه الرواية يتمثل في الأساطير التي روجها بعض الشعراء عن محمد ، والتي انتشرت في الغرب في العصر الوسيط . وهى أساطير من وحى الخيال ولا تعتمد على أية معرفة حقيقية بالإسلام ونبيه .

ويعترف بفانموللر بأن ما كان يعرفه الناس عن المسلمين حينذاك لم يكن يتعدى أمورا قليلة مثل الوضوء وشيئا عن الصلاة وتعدد الزوجات ، فلا عجب أن جعلوا من محمد صلى الله عليه وسلم « كاردينالا » كان يطمع في منصب البابوية ثم انشق على الكنيسة لعدم حصوله على هذا المنصب ، وراح خيالهم المريض ينسج قصة غريبة حول وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولعل القارئ كان ينتظر منا أن نحذف مثل هذه الأباطيل ، ولكننا نحيل القارئ الكريم إلى ما كتبناه عن ذلك في مقدمة هذا البحث . ومن ناحية أخرى لابد لنا من التعرف على أسلوب تفكير الغرب نحونا في تلك العصور الوسطى التي كانت تعد بحق عصورا مظلمة The dark Ages باعتراف الغرب نفسه ، في الوقت الذى كانت فيه لدى المسلمين حينذاك حضارة مزدهرة وفكر راق وعلم متقدم ، فلعل في ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر .

(٢) انظر الهامش السابق .

ديانة الأتراك ومولد وحياة ووفاة نبيهم المزيف محمد[1] » الصادر في (باريس) عام ١٦٢٥ (وقد أعيد طبعه عام ١٦٣٢ ، وعام ١٧٤١) وقد كان بودييه أول من قام بتأليف سيرة لمحمد بالفرنسية .

ثم تناول مارتينو بعد ذلك ترجمة دورييه[2] 5Du Ryer للقرآن .

أما الفصل الثالث الذى جاء بعنوان « التأثير الكبير لمحاربة الكاثوليكية للإسلام » فإنه يصف المحاربة والنقض المنظمين لمحمد من جانب كل من بسكال[3] وماراتشي

---

(١) لقد كان بودييه يهدف بكتابه - كما يقول هو نفسه - إلى « الكشف عن أباطيل ورذائل نبي الأتراك ، والكشف عن تضليله وتفاهة طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة » .

فهل يمكن أن ينتظر أحد بعد ذلك أن يقول بودييه كلمة حق في محمد ؟ لقد كان كاثوليكيا متعصبا يستقي معلوماته - كما يقول بفانمولر - من المصادر الكنسية دون أدنى فحص أو تمحيص . وقد ساعد كتابه على حجب حقيقة الاسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبين طوال القرن السابع عشر (انظر بفانمولر ص ١٦٨) .

(٢) تعد ترجمة دو رييه للقرآن التي ظهرت عام ١٦٤٧ أول ترجمة فرنسية للقرآن . وقد عمل دو رييه مدة طويلة قنصلا لبلاده في مصر ، وهناك تعلم العربية ، وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة على مدى قرن ونصف ، وأقبل الناس على قراءتها إقبالا كبيرا . ولم يكن دو رييه منصفا للإسلام بأى حال من الأحوال . وقد ظلت ترجمته تمارس تأثيرها إلى أن قام سافارى Savary بانجاز ترجمة فرنسية أخرى للقرآن ظهرت عام ١٧٨٣ .

(٣) بليس بسكال Blaise Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢) هو الفيلسوف الفرنسي المعروف ، وقد صدر كتابه : خواطر حول الدين Pens'ees Sur la religion في باريس عام ١٦٧٠ . وقد كان بسكال يرى في محمد العدو اللدود للكنيسة ، ولهذا كان حريصا كل الحرص على محاربته ، ففي كتابه السابق يتناول محمدا صلى الله عليه وسلم في تسع شذرات من بين الشذرات التي يضمها هذا الكتاب ، ويعقد في أحداها مقارنة بين محمد والمسيح يقول فيها : إن محمدا لم يجر التنبؤ بظهوره في العهد القديم في حين جرى التنبؤ بظهور المسيح ، ومحمد كان يقترف القتل في حين كان المسيح يدع أتباعه يقتلون ، ومحمد كان يحرم القراءة في حين كان الحواريون يأمرون بالقراءة ، ومحمد صادف نجاحا دنيويا في حين كان المسيح مغلوبا على أمره وانتهى به الأمر إلى الصلب . . الخ . . وكان بسكال يفتقد لدى محمد عدم إتيانه بالمعجزات ، كما أن تعاليمه لم تشتمل على أسرار (كما هو الشأن في المسيحية) ، وينكر بسكال على محمد الأخلاق « السيئة » التي أتى بها ، كما ينكر عليه تصوراته الحسية للجنة ، ويقول إنه لم يجد في هذا الدين سببا يحمله على قبوله لأنه دين ليس فيه أي أمارة من أمارات الحقيقة . (راجع بفانمولر ١٤٩) .

هذا هو بسكال الفيلسوف . والفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد التام والنزاهة والموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة . ولكن بسكال كان في موقفه من الإسلام ونبيه يفتقد كل هذه الصفات ، وبرهن على جهل فاضح وراح يتبنى الآراء الكاذبة السائدة حينذاك حول الإسلام ونبيه شأنه في ذلك شأن رجل الشارع ، فأساء لنفسه وللفلسفة وللحقيقة بصفة عامة .

وبريدو .

أما رد الاعتبار لمحمد ـ كما يتناول ذلك الفصل الرابع الذى يحمل عنوان « رد الفعل البروتستانتى والفكر الحر » ـ فقد كان عملا من أعمال القرن الثامن عشر .
فبعد العمل الذى قام به كل من هوتنجر ومونى Moni قاد كل من ريلاند وجانييه إلى نظرة أكثر موضوعية لشخص محمد وأعماله لدرجة أن الكونت بولا نفلييه رأى في محمد شخصية عبقرية ومشرعا وفاتحا عظيما .
وقد خصص المؤلف الفصل الخامس لموضوع « محمد في الأعمال المسرحية » وهنا يركز مارتينو على كل من ليساج[١] وفولتير .

وفي الفصل السادس الذي جاء بعنوان : « محمد والموسوعيون » يعرض مارتينو عمل فولتير « مقال عن العادات » وأعمال الموسوعيين .
ويختتم مارتينو هذا البحث الهام بالحديث عن ترجمة سافاري للقرآن ، ويأتي بعد ذلك ملحقان هما :
١ – المؤلفات الفرنسية الأساسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بالإسلام .
٢ – ترجمات القرآن في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

مينور :

أما مينور فإنه يقدم لنا في الفصل الأول من بحثه (محمد لدى جوته[٢]) نظرة على تاريخ ما قبل محمد ، ويمس باختصار آراء العصر الوسيط في محمد ، ويعرض علينا أولا سلسلة من « خليط لا ترابط فيه » عن تركيا والأتراك ، يتضمن أشد الأخبار خرافة عن محمد وقرآنه مما هو منتشر على نطاق واسع . وقد استطاع جوته

(١) آلان رينيه ليساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧) أديب فرنسى .
(٢) نشر مينور هذا البحث في ڤينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

في القرن الثامن عشر أن يطلع على آراء القرنين السابقين (في محمد) في تاريخ الأحداث لجوتفريد وفي المقالة المطولة في قاموس بايل .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور تاريخ ترجمات الرآن وتاريخ طبعاته ، وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية قد أمرت بإحراق نسخ طبعة القرآن التي صدرت في البندقية عام ١٥٣٠ ، وفي حين أن البابا الكسندر السابع (١٦٥٥ - ١٦٦٧) قد منع طبع القرآن ، كما منع أيضا ترجمته ، فإن مضمون القرآن قد أصبح سهل المنال عن طريق الترجمة من الجانب البروتستانتي ، ولكن مع إضافة نقض مفصل للقرآن من وجهة النظر المسيحية . وقد أعاد ببلياندر - خليفة تسفنجلي[1] نشر الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن التي أنجزت عام ١١٤٣م بإيعاز من الأب بطرس الكلوني وذلك بعد أربعمائة عام من صدورها ، وأضاف إليها عديداً من الردود المفندة .

وقد توالت بعد ذلك الترجمات التي قام بها كل من شفايجر[2] ودوربيه ويوهان لانجه ونريتر وماراتشي

وقد حدث تحول في الحكم على محمد عن طريق العلماء البروتستانت ، وبوجه خاص عن طريق ريلاند ، وقد أخذ جانييه موقفاً وسطاً بين الاتجاه اللاعن الذى تبناه كل من ماراتشي وبريدو من ناحية ، والاتجاه الممجد لمحمد والذي يمثله بولانفلييه من ناحية أخرى . وقد قص علينا جانييه حياة محمد بكل ما فيها من معجزات وأساطير باذلا قصارى جهده في استخدام مصادر جيدة ، وغالباً ما كان يقتبس منها حرفياً . وبعد ذلك بعامين (أي عام ١٧٣٤) ظهرت في انجلترا ترجمة إنجليزية للقرآن قام بها سيل ، وقد حظيت هذه الترجمة بتقدير فائق وسمعة طيبة في القرن الثامن عشر .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور بالتفصيل صورة محمد في عصر التنوير : ويصادفنا هنا في عرضه أسماء كل من ليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول

---

(١) أولريش تسفنجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) قطب الاصلاح الديني في سويسرا ، سقط قتيلا في الصراع ضد الكاثوليك .

(٢) قام سالمون شفايجر بانجاز هذه الترجمة الى الألمانية عن ترجمة ايطالية معتمدة أساسا على النص العربي . وقد ظهرت ترجمة شفايجر للقرآن في ثلاثة أجزاء في مدينة نورنبرج عام ١٦١٦ وام ١٦٢٣ .

وهاجيدورن وجلايم وتوربين ، وبصفة خاصة فولتير « بطل عصر التنوير » .

وهناك أيضا ترجمتان ألمانيتان للقرآن قام بترجمتهما من الأصل العربي مباشرة كل من ميجر لين[1] Megerlin وبويزن[2] Boysen وقد لقيتا حقهما من التقدير . ويختتم مينور الفصل الخاص بما قبل التاريخ بالحديث عن جيبون Gibbon ، وهردر ، وأولزنر Golznor .

وبعد ذلك يتناول مينور بالتفصيل في الفصل الثاني شذرات فرانكفورت لجوته ، وفي الفصل الثالث يتناول رواية فولتير الدرامية عن محمد . وفي الفصل الرابع يتحدث عن الخطة في « الشعر والحقيقة » لجوته . ثم يتناول أخيرا في الفصل الخامس الفترة الشرقية الغربية ، وهناك هوامش مفصلة تقدم اشارات ببليوجرافية قيمة بالاضافة إلى ملحق يتضمن النصوص المتعلقة بمحمد من مؤلفات جوته[3] .

فولفل :

أما أدولف فولفل Adolf Fohluill فقد قام على نحو موفق بتكملة العرض الذي قدمه مينور ، وذلك في بحثه المفصل « ألمانيا والإسلام وتركيا »[4] .

---

(١) ظهرت هذه الترجمة في فرانكفورت عام ١٧٧٢ .

(٢) ظهرت ترجمة بويزن للقرآن في هاله بألمانيا عام ١٧٧٣ واعيد طبعها عام ١٧٧٥ .

(٣) جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) هو أعظم الشعراء الألمان على الأطلاق ، وقد كان منصفا للشرق والاسلام ونبيه ، قرأ القرآن بامعان في ترجمتين احداهما لاتينيه والأخرى ألمانية ، واقتبس منه الكثير ، ويظهر تأثره بالقرآن بوجه خاص في الديوان الذي أسماه « الديون الشرقي الغربي » . ومن بين ما نقرؤه له في هذا الديوان قوله : لله المشرق ولله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا » .

وفي بعض أشعار الحكمة من ديوانه يقول عن الاسلام : « منم حماقة الانسان في دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه ، واذا الاسلام كان معناه التسليم لله فاننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين » .

وقد وضع جوته مشروع تمثيلية عن محمد تدل على إعجابه وتقديره لنبي الاسلام ، مما يدلى على سعة أفقه وسمو فكره ونزاهة حكمه ، وترفعه عن التعصب الشعوبي والديني . (انظر مزيدا من التفصيل عن ذلك في كتاب : الشرق والاسلام في أدب جوته » للاستاذ عبد الرحمن صدقي ص ١٤ وما بعدها من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٠) ٧

(٤) نشر هذا البحث في العدد رقم ٢٢ من مجلة أيفريون عام ١٩١٥ ، ص ١ - ٢١ ، وص ٢٢٥ - ٢٦٧ .

وفي فصل تمهيدي يتناول باختصار العلاقات السياسية بين تركيا والغرب عبر القرون . وبعد ذلك يصف لنا (في فصل آخر) الخطر التركي كما يصوره الشعر الألماني والدراما بصفة خاصة ، وذلك من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر ، وفي الفصل الثالث يتناول انخفاض درجة العداء ضد الإسلام بتأثير عصر التنوير والمصالح السياسية . وهنا يتناول فولفل النشرة العربية للقرآن التى قام بانجازها هينكلمان[1] ، كما يتناول أيضا الترجمات الألمانية الأولى للقرآن ، ويبين كيف أن العداء ضد الإسلام قد أخذ يضعف بالتدريج ويحل محله - في تزايد مستمر - حسن النية لدى مؤلفي عصر التنوير (هادريان ريلاند ، ليبنتز ، ليسنج . رايماروس) .

وفي الفصلين التاليين لذلك يقدم فولفل عرضاً مختصراً لتاريخ الإسلام في مرآة العلم والشعر أثناء عصر الكلاسيكيين لدينا ، وأثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهنا يقوم أولا - بناء على دراسات متخصصة - بتقدير نشاط المستشرق دافيد فريدريش ميجرلين : الفورتمبرجي (نسبة إلى مقاطعة بألمانيا) الذي يرجع إليه الفضل في القيام بإنجاز أول ترجمة ألمانية للقرآن على أساس النص العربي ، وبعد ذلك يصف لنا فولفل موقف شعرائنا الكبار - هردر ، وجوته ، وفيلاند ، وشيللر - من الإسلام ومن مؤسسه .

وبالإضافة إلى ذلك يتحدث فولفل عن النشاط التأليفي لكل من أولزنر وهامر بورجشتال[2] Bhorgesntal ، وقد كان لهذا الأخير عن طريق تأثيره على جوته فضل لا ينسى ، وقد حظيت بالتقدير ، بجانب « الديوان الشرقي الغربي » لجوته ،

---

(١) كان القس ابراهام هنكلمان من هامبورج هو اول من تجرأ على نشر النص القرآني بالعربية عام ١٦٩٤ وذلك بعد إحراق أول طبعة عربية كاملة للقرآن في أوربا عام ١٥٣٠ في البندقية بأمر البابا ، وبعد الحظر الذي قرره البابا الكنسدر السابع (١٦٥٥ - ١٦٦٧) والذي كان يقضي بعدم نشر أو ترجمة القرآن .

(٢) جوزيف فون هامر - بورجشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦) مستشرف نمساوى ، طوف في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وايران وتركيا ، وأنشأ في فيينا مجمع العلوم ، وكان يحسن الكتابة بعشر لغات . له دراسات وافرة ولاسيا في تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام ! وقد حقق الكثير من النصوص العربية ونشرها وترجم بعضها الى الألمانية أو الانجليزية أو الفرنسية . أصدر في فيينا أول مجلة استشارقية متخصصة في أوربا هى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت من عام١٨٠٩ حتى عام ١٨١٨ . وأهم مصنفاته : تاريخ الدولة العثمانية في عشرة مجلدات بالألمانية ثم ترجم الى الفرنسية ، وتاريخ الآداب العربية في سبعة مجلدات . (المستشرقون ٢ / ٢٧٤ وما بعدها) .

الأعمال الشعرية المتعلقة بالشرق لشعراء من بينهم روكرت[1] Rokert وبلاتين[2] Blaten وكذلك النشاط العلمي لكل من هامربورجشتال وجورج فريدريش داومر Daumer وعدد من المستشرقين الألمان .

أما الفصل السادس فقد خصصه فولفل لرواد العلاقات الجديدة بين ألمانيا وتركيا من أمثال مولتكه وكريستيان فريدريش فورم وفريدريش لست[3] . أما الفصل الختامي فإنه يقدم نظرة سريعة على السياسة الألمانية والشعوب الإسلامية في بداية القرن العشرين .

هـــاز :

إن ما أخذه هاز على عاتقه لم يكن هو عرض الصورة الحسية لمحمد عبر تحولات العصور[4] - فالعرض التصويري للإنسان كان محرما بالنسبة للمحمديين - وإنما أخذ على عاتقه رسم الصورة الروحية للرجل كما صورت في رءوس الناس على مدى العصور . وذلك لأن أفضل سبيل - في رأي المؤلف - لتكوين حكم على محمد يتمثل في استحضار الأحكام الأساسية التى ذاعت خلال تحولات العصور وعبر القرون عن هذا الرجل ذى الأهمية التاريخية .

وفى البداية يصف هاز مدى تباين الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه الذين كان يعيش بينهم[5] ، وبعد ذلك يتحول هاز إلى الحديث عن الآراء التي تكونت عن محمد خارج العالم الإسلامي .

وعلى رأس التفصيلات التي أوردها « هاز » نجد تقديراً لدراما فولتير

---

(١) فريدريش روكرت(١٧٨٨ - ١٨٦٦) شاعر ألماني ، اهتم بالأدب العربي وعمل استاذا للغات الشرقية في إرلنجن وبرلين . له دراسات حول مقامات الحريرى ، وطرفه بن العبد ، وعمر بن كلثوم ، وامرىء القيس ، وديوان الحماسة لأبي تمام ، وقصيدة البردة لكعب بن زهير ، وقد ترجم الى الألمانية كثيرا من هذه الآثار الأدبية .

(٢) بلاتين (١٧٩٦ - ١٨٣٥) شاعر ألماني .

(٣) فريدريش ليست (١٧٨٩ - ١٨٤٦) من علماء الاقتصاد الألمان .

(٤) نشر هانز هاز بحثه عن محمد بعنوان « صورة محمد عبر العصور » في مجلة التبشير وعلم الأديان . العدد رقم ٣١ عام ١٩١٦ .

(٥) من المعروف ان هذا التباين في الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه لم يظهر الا بعد بعثته ودعوته الى دين الله ونبذ عبادة الأصنام ، أما قبل البعثة فقد كان هناك اجماع على تقديره ، وشاع حينذاك وصفه بالصادق الأمين .

« التعصب أو محمد النبي » ولمحة - عن انتصارات الإسلام على العالم المسيحي .

وبعد ذلك يقدم لنا (هاز) لمحة تاريخية مختصرة عن الجدل المسيحي ضد محمد وضد القرآن بدءا من يوحنا الدمشقي[1] حتى نهاية القرن السابع عشر . وفي أثناء العصر الوسيط كله ، وكذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كان الحكم على محمد حكماً سيئاً إلى أبعد الحدود . إذ يوصف بأنه دجال ونبي مزيف ومؤسس طائفة[2] وتجسيد لشتى ألوان الرذائل والمنكرات .

أما رد الاعتبار لمحمد فقد جاء أولا من جانب مؤلفين بروتستانت ، وبصفة خاصة من جانب كل من هوتنجر ، وريلاند ، وسيل . وقد كان عصر التنوير والغليان على وجه الخصوص يولي شخصية محمد اهتماماً كبيراً . وهنا يعرض (هاز) تصورات كل من فولتير وبايل وجيبون وليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول وهردر وغيرهم ، ويسهب بصفة خاصة في عرض تصورات (جوته) عن النبي العظيم .

وأخيراً جاء القرن التاسع عشر بعرض تاريخي نقدي لحياة النبي العربي وأعماله ، وقد وضع حجر الأساس في هذا السبيل (فايل) بكتابه عن سيرة محمد ، وقد تبع ذلك في الستينات من القرن الماضي المؤلفات الكبيرة عن محمد لكل من (موير) واشبرنجر ونولدكه ، وقد سار على دربهم كل المتأخرين من أمثال كريل وأوجست موللر .

---

(١) يوحنا الدمشقي (٦٧٦ ـ ٧٤٩ م) عالم مسيحي عاش في ظل الدولة الأموية وخدم في القصر الأموى ، ومن بين مصنفاته كتاب « محاورة مع مسلم » ، وكتاب » إرشادات النصارى في جدل المسلمين » .

(انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ١٩) .

(٢) يعنى مؤسس طائفة منشقة على المسيحية .

وفي نهاية البحث يقدم (هاز) عرضاً قصيراً لأهم المؤلفات الحديثة عن محمد والإسلام . والأمر الذي له أيضا قيمة خاصة هو تلك الاقتباسات المطولة من المؤلفين المعنيين الذين ظهروا على وجه الخصوص ابتداء من القرن الثامن عشر بأعداد كبيرة .

تور أندريه :

يبحث تور أندريه[1] - على أساس من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيرة - التصورات المتعلقة بشخص محمد في تعاليم طائفة المسلمين وعقيدتهم منذ البدايات الأولى حتى تكوين التقديس للنبي . وفي مقدمة دقيقة للغاية يتناول أندريه مسألة المكانة التي طالب بها محمد نفسه لشخصه في النسق الديني . فمن ناحية كان محمد يحس أنه ليس إلا مبلغاً للوحي الأهي الثابت المكتوب ومن أجل ذلك وضع شخصه في الخلفية على نحو يتسم بالخضوع .

ولكن التغيير غير المتوقع لظروفه الخارجية - وبصفة خاصة انتصاره في بدر - كان له تأثير قوى على وعي النبي باصطفائه ، وأخيرا أصبح الوحي الذي كان يظهر في البداية بوصفه تأثيراً من جهة عليا فوق التشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبي النفسية - أصبح بالتدريج يأتيه أيضاً مرتبطا بوعي عادي ، وهذا الارتباط جعل الوحي أخيرا واقعاً إلى حد ما تحت مراقبة نفسية . وهكذا وصل الأمر بالنبي بالتدريج إلى الحد الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على

(١) تور أندريه (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧) مستشرق سويدي ، عمل أستاذا للعلوم الدينية في جامعتي استوكهلم وأوبساله ـ ومن مؤلفاته : بحوث في الكنائس النسطورية في الحيرة واليمن وأثرها في الاسلام ، وله دراسات حول : القصص في الإسلام ، والصوفية ، والنصرانية والاسلام ، والاسلام عقيدة ووحى ، ومن هو محمد ؟
أما كتابه عن سيرة الرسول (شخص محمد في تعاليم وعقيدة أتباعه) فقد كان رسالته للدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة استوكهلم عام ١٩١٧ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الايطالية والانجليزية والالمانية ، وهو الكتاب الذي يتحدث عنه بفانموللر هنا . (المستشرقون ٣/٣٣ ، بفانموللر ١١٣) .

أنها وحي الله ، ويتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما في مكانة واحدة(1) .

وقد بدا محمد أيضا متسامحاً إلى درجة معينة إزاء ما كان يقدمه له أصحابه من الاحترام أو التقديس الخرافي الذي كان يقدم في العصور القديمة للرجل القديس . وكنتيجة أخيرة للتطور الذى وصل إليه الوعي النبوي لدى محمد بتأثير من انتصاراته العظيمة نجد الاقتناع لديه بأن رسالته جاءت عامة للعالم كله ، وأن دينه قد قدر له أن يحقق النصر على كل الديانات الأخرى ، وأنه هو نفسه « خاتم النبيين » ، وأفضل الأنبياء وآخرهم ، وأنه كان مقصد تطور النبوة كله في حقيقة الأمر ، وعلى هذا النحو كان في وسع التقديس الذي نشأ فيما بعد للنبي أن يجد في

---

(1) لقد بدأ وعى محمد باصطفائه مع بداية بعثته والا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاما في مكة يدعو فيها الى دين الله ، ومن منطلق وعيه التام باصطفائه وبأن ما جاء به هو الحق كانت قولته الشهيرة لعمه أبي طالب : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهكذا نرى أن هذا الوعى بالاصطفاء لم يكن ـ أو لم يزدد ـ نتيجة ظروف خارجية « غير متوقعة » ، فقد كان واضحا جليا منذ اللحظة التى أمره الله فيها أن يصدع بدعوته ويعلن على الناس رسالته ، فخرج إليهم قبل انتصار بدر باثنى عشر عاما يقول لهم : « انا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » .

وعلى الرغم من هذا الوعى القوى بالاصطفاء ، فانه قد ظل حتى آخر لحظة يشعر بأنه ليس الا مبلغا رسالة ربه . وقد ورد تأكيد هذا المعنى في القرآن في اثنى عشر موضعا على الأقل نصفها مدنى والنصف الآخر مكى .

وقد كان الوحى منذ البداية مرتبطا بعلاقة واعية متيقظة بحياة النبى النفسية فقد روى البخارى في صحيحه عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » .

أما القول بأن الأمر قد وصل بالنبى الى اعتبار ما كان يبدو له من أفكار وقرارات وحيا من عند الله فهذا يعنى اتهام محمد بالكذب على الله اذ ينسب اليه ما لم يقله . وهذا كلام مردود لا سند له من الواقع . فمحمد صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين الذي لم يجرب عليه أحد كذبا قط ، وكان قمة القمم في السلوك الفاضل الذي استحق به أن يمدحه الله في قوله : « وانك لعلى خلق عظيم » .

أما ان محمدا كان يتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما في مكانة واحدة فلعل (أندريه) يعنى هنا ما ورد في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ـ النساء : ٨٠ ـ ؛ وقوله « أطيعوا الله ورسوله » الأنفال : ٢٠ ـ ؛ ، وقوله « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » آل عمران ٣١ ـ ، وأمثال هذه الآيات كثيرة . ولكن المتكلم هنا هو الله لا محمد ، والله أيضا هو الذي كان يعاتب نبيه عندما كان يتخذ قرارا لا يكون هو القرار الأولى ، كما عاتبه في عبد الله بن أم مكتوم وفي فداء الأسرى .

الواقع أيضا نقاط ارتباط معينة في الشهادات الذاتية لمحمد[1] .

وفي الفصل الأول يصف أندريه نشأة « أسطورة محمد » وكيف كانت بصفة خاصة عملا من أعمال القصاص ، وهم أولئك الذين احترفوا مهنة حكاية الأساطير ، وتصادفنا آثار نشاطهم في كتاب ابن اسحق [2] . فحياة محمد كلها يتم نسجها هكذا بالتدريج في شبكة من المعجزات . ويبسط أندريه القول بوجه خاص في قصة ميلاد محمد والمعراج ومعجزات الطعام والماء ومعجزة الشفاء وشق الصدر وانشقاق القمر ، والمصدر الرئيسي لهذه المعجزات هو أساطير وأقاصيص دوائر

---

(١) لم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم لنفسه مكانة معينة ، ولم يقبل ان يقدم له احد تقديسا أو احتراما خرافيا أو غير خرافي ، فقد كان ـ على العكس من ذلك ـ يرفض مثل هذا اللون من التقديس . وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلم : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » ـ رواه البخاري ـ وقد روى ابن ماجه عن ابن مسعود قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له : هون عليك فأني لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » .

والقرآن يؤكد في العديد من آياته على بشرية الرسول . من ذلك قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد » ـ الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦ ، وقوله « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » ـ الإسراء : ٩٣ .

أما اقتناع محمد بعموم رسالته لكل البشر فلم يكن ذلك نتيجة لانتصارات معينة ، بل كان ذلك الأقتناع من أول يوم صدع فيه بالدعوة حين خرج على الناس يقول لهم : « أنا رسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة » ـ وعموم رسالته يعنى ختم النبوة ، فمن المعروف أن موسى عليه السلام قد أرسل إلى بنى إسرائيل فقط ، وأن عيسى عليه السلام قد أرسل إلى « خراف بنى إسرائيل الضالة » . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسل الى الناس جميعا . وفي ذلك يقول ـ فيما يرويه البخاري ومسلم : « وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » . فليس هناك إذن مجال لرسالة أخرى بعد أن أكمل الله الدين ورضى الاسلام دينا للعالمين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ـ المائدة : ٣ ـ ؛ والدين عند الله بصفة عامة هو الاسلام « إن الدين عند الله الإسلام » ـ آل عمران : ١٩ .

ولكن نسخ الاسلام للشرائع السابقة لم يجعل محمدا يقلل من شأن الأنبياء السابقين عليه فكلهم من نفس النبع اغترفوا ، وفي هذا الصدد يقول القرآن : « لا نفرق بين أحد من رسله » ـ البقرة ٢٨٥ ـ ، وقد روى البخاري ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيروني على موسى » .

(٢) ابن اسحق : هو أبو عبد الله محمد ، توفر على جمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر أنه قام بتدوين سيرة النبى في كتابين أولهما : كتاب المبتدأ أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » ويتضمن تاريخ النبى حتى الهجرة ، وثانيهما هو كتاب « المغازى » وقد عرف ابن هشام كتاب المغازي عن طريق تلميذ مباشر لأبن اسحق هو زياد بن عبد الله الكوفي ، وقد جمع ابن هشام كتابى ابن اسحق وهذبهما كثيرا في مواضع معينة واستخلص منهما « كتاب سيرة رسول الله » وقد أخرج الكتاب في صورته الحالية في القرن الرابع الهجرى الوزير المغربى ، وشرحه السهيلي المتوفى عام ٥٠٨ هـ . اما ابن اسحق فقد توفى في بغداد حوالي عام ١٥٠ من الهجره . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) .

الحضارة الهللينية[1] . وبعد مضى بعض الوقت (على أعمال القصاص) ظهرت مؤلفات حول معجزات محمد ، وقد حظيت هذه المؤلفات أيضا بعرض تفصيلي من جانب أندريه .

أما الفصل الثاني فإنه يصف المحاولات التي قام بها العلم المختص بالعقيدة لمناقشة هذه المعجزات التي استقرت في عقيدة الشعب . وتشكل تعاليم عصمة النبي محتوى الفصل الثالث . وقد تزايد باستمرار تبرئة شخص محمد من كل الأخطاء وتحرير أفعاله من كل ما يمكن أن يكون مثارا للنقد[2] . وفي الفصل الرابع الذي جاء بعنوان (شخص محمد والسنة) يظهر محمد أيضا بوصفه المثل الأعلى لكل مجالات الحياة الأخلاقية . وقد كان لصورته المثالية قوة تأثير عظيمة لدى الصوفية .

أما الفصل الخامس الذي يحمل عنوان (شخص النبي والتقوى) فإنه يصف المكانة التي يتمتع بها النبي بوصفه شفيعاً أو وسيطاً بين المذنبين من الناس والرب الرحيم ، وأخيرا يتناول الفصل الأخير موضوع (نشأة تقديس النبي) وكيف تم تكوينه بصفة رئيسة عن طريق الصوفية بتأثير شيعي ، وقد تسرب أيضا مفهوم الوحي وكذلك تعاليم الوجود السابق والعقل (اللوجوس) إلى الإسلام السني بالتدريج بتأثير شيعي ، ويعد محمد المنفذ الوحيد للقدرة الألهية ، أجل ، إنه يعد

---

(١) تروى الكتب المسيحية الأوربية المؤلفة عن حياة القديسين المسيحيين ألوانا شتى من الأقاصيص والغرائب وخوارق العادات وعجائب الأمور التى حدثت على أيدي هؤلاء القديسين ، ويستكثر أندريه على محمد النبى أن تحدث له مثل هذه المعجزات ، ويسارع بردها الى الحضارة اليونانية ! فأي منطق هذا ! وكيف وأين اتصل هؤلاء « القصاص » الذين يروى عنهم ابن اسحق هذه المعجزات ـ بالحضارة اليونانية ؟

(٢) ليس هناك محاولة مصطنعة من جانب علم الكلام لتبرئة النبى عليه الصلاة والسلام من كل الأخطاء . فان من لوازم النبوة بالضرورة وجوب الاعتقاد في أمانة النبى في تبليغ ما أمره الله بتبليغه ، وعصمته من كل ما يشوه سيرته ، وهذه من الصفات التى يجب أن تتوافر في كل الأنبياء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك .ومن ناحية أخرى فإن الأنبياء يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أفراد البشر من الأمور التى لا تخل بمقام الرسالة ، فهم يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا عاقة له بتبليغ الاحكام ، وتمتد اليهم أيدي الظلمة وذوي الاضطهاد . وقد تكفل علم الكلام بتفصيل القول في ذلك وفي غيره من أمور الاعتقاد .

في النهاية المثل الأعلى لكل المتصوفة الذين تربطهم بالنبي علاقة تقديس مفعم بالحب[1] .

وقد أغفل أندريه تماما الشعر المعاصر لمحمد والفترة المبكرة للإسلام . ويشير جوزيف هوروفيتس[2] إلى هذا المجال في مقالته التي تحدث فيها بإسهاب عن كتاب أندريه في مجلة « الإسلام » (مجلد ١١ من عام ١٩٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٣) .

---

(١) سبق أن أشرنا الى ان اجلال المسلمين للنبى صلى الله عليه وسلم لا يخرجه عن اطار البشرية ، وهو اجلال يقف عند حدود ما رسمه القرآن الكريم . أما التأثيرات الدخيلة التى يرى أندريه أنها تسربت الى الاسلام بتأثير شيعى فنود هنا أن نؤكد أن الاسلام - بمصدريه القرآن والسنة الصحيحة - لا يتحمل تبعة اية افهام تنحرف بتعاليمه خارج اطار هذين المصدرين اللذين لم يمتزجا أو يتأثرا في يوم من الأيام بأية تيارات دخيلة من أى نوع وفي أى شكل . وهذه ميزة فريدة يمتاز بها الاسلام عما عداه من أديان سماوية اختلط فيها الدخيل بالأصيل لدرجة الأمتزاج التام .

ولست ادرى ماذا يقصد أندريه بجعله مفهوم الوحى ضمن العناصر التى دخلت الى الاسلام « السنى » بتأثير شيعي . فالمعروف أن مفهوم الوحى مفهوم قرآنى خالص يعرفه المسلمون قبل ظهور مفاهيم الشيعة والسنة وغيرها .

أما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعد المثل الأعلى للصوفية الذين تربطهم بالنبى علاقة مفعمة بالحب فنود أن نؤكد هنا أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لكل المسلمين وليس للصوفية فقط . فالله سبحانه وتعالى قد جعله « أسوة حسنة » للجميع يترسمون خطاه ويسيرون على هديه (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) الاحزاب ٢١ . وقد امتدحه الله في قوله « وانك لعلى خلق عظيم » وأمر الله المسلمين جميعا بالصلاة عليه اقتداء بربهم وملائكته في ذلك (ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) - الاحزاب : ٥٦ .

والمسلمون جميعا - وليس الصوفية فقط - تربطهم بنبيهم علاقة حب غامر يجل عن الوصف . وينطلق هذا الحب من القرآن نفسه الذي ربط بين اتباع النبى ومحبة الله (ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) - آل عمران : ٣١ ، وقد جعل القرآن جميع ألوان الأهتمامات الدنيوية التى يمكن ان تكون محورا للحب في كفة وحب الله ورسوله في كفة اخرى . وفي ذلك يقول الله تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين » - التوبة : ٢٤ .

وهذا الحب الغامر يتمثل بصورة جلية في القصة التالية :

أسر المشركون زيد بن الدثنة وساقوه الى ساحة القتل ، وهناك سأله أبو سفيان - والرمح موجه الى بطن زيد ليغرس في أحشائه - أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك سالم في أهلك ؟ فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس في أهلي » ، وهناك قال ابو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا .

(القصة منقولة عن مقال لفضيلة الشيخ محمد الغزالي بمجلة الدوحة مارس ١٩٨٤ م) .

(٢) جوزيف هوروفيتس (١٨٧٤ - ١٩٣١) مستشرق ألماني ، كان أستاذا للعربية في جامعة عليكره بالهند ، ثم في جامعة فرانكفورت بألمانيا . له دراسات عديدة في الاسلام والأدب العربي ، نشر أو اشترك في نشر العديد من المؤلفات العربية ، وترجم بعضها إلى الأنجليزية أو الالمانية .

شفاللى : -

وأخيرا يقدم لنا شفاللى[1] لمحة قصيرة عن البحوث المسيحية لحياة محمد في المجلد الثاني من الطبعة التي قام بإعدادها من جديد لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (ص ١٩٨ - ٢٠٨) وذلك تحت عنوان : « السير المسيحية للنبى » وطبقا للتحول الذي طرأ على الحكم على المأثورات العربية (قارن ص ١٩٣ - ١٩٨ : نقد المأثورات) يقسم شفاللى المؤلفات الغربية عن حياة محمد إلى ثلاث فترات (على النحو التالي) : -

١ - السيادة المتصلة للتقاليد الموروثة حتى منتصف القرن التاسع عشر (شبرنجر) .

٢ - عصر بداية النقد لأجزاء منفردة من الموروثات .

٣ - عصر النقد المنهجى للموروثات جميعها .

أما الفترة الأولى فتمتد من العصر الوسيط كله حتّى منتصف القرن التاسع عشر . وهنا يشير باختصار إلى كل من هوتنجر وماراتشى وريلاند ، وبعد ذلك يتناول بتفصيل أكثر كلا من جانييه وكوسان دى برسيفال وجوستاف فايل . أما الفترة الثانية فيذكر منها الأسماء التالية : شبرنجر وموير ونولدكه ودوزى وكريل ورانكه وأوجست ميللر وجريمه وبول ومرجيليوث . وأما الفترة الثالثة التي نعيش

---

(١) فريدريك شفاللى (١٨٦٣ - ١٩١٩) مستشرق المانى ، تتلمذ على نولدكه . قام بنشر كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى في ثلاثة مجلدات (جيسن ١٩٠٢) وعنه طبع في القاهرة ، اشترك في نشر الطبقات لابن سعد . أعاد طبع « تاريخ القرآن » لنولدكه بعد تحقيقه والتعليق عليه في مجلدين - ليبتزيج ١٩٠٩ - ١٩١٩ . - (المستشرقون ٢/٤١٠) .

في بداياتها فينتمى إليها بصفة خاصة الكتاب الضخم الـذي قام بتـأليفه ليـونى كيتانى[1]. Leone Caetani

(١) الامير ليون كايتانى (١٨٥٩ - ١٩٢٦) مستشرق ايطالى ، كـانت لديـه ثروة طـائلة أنفقها عـلى العلم والرحلات واقتناء الكتب والمخطوطات النفيسة ونشر مؤلفاته حتى أفلس في النهاية . ومن مؤلفاته : دراسة التاريخ الشرقى ، فى عدة مجلدات (ميلانو ١٩١١ وما بعدها) وقد خصص منها مجلدا لسيرة الرسول . وله أيضا : حوليات الإسلام في حوالى ستة مجلدات (ميلانو ١٩٠٥ - وما بعدها) . وقد أنفق على ثلاث بعثات لمناطق الفتح لرسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع المصادر من اللاتينية والسـريانيـة والعربيـة ، وتناولها بالنقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التي لم تنشر بعد ، وتحديد ما ينبغى الرجوع اليه منها لمعرفة كل حادثة . وكان يعد بالاشتراك مع جوزيبى جابر يبلى معجم الأعلام عن شخصيات العالم الإسلامى الذي كان ينتظر أن يقع في ٣٥ مجلدا ، ولكن الموت حال بينه وبين إتمام هذا العمل فوقف عند الجزء الثانى منه . (انظر أيضا « المستشرقون » ١ / ٤٢٩ وما بعدها) .

أسطورة محمد في العصر الوسيط

كواريسميوس : -

لقد كانت المحاولة الأولى لتناول أساطير العصر الوسيط عن محمد هى تلك التي قام بها كواريسميوس في صورة مختصرة (قارن أيضا دراسته حول مولد محمد وتطوره والعصر الذي عاش فيه) :

De ortu, progressu et tempore quo floruit Mahomet)

ولكن هذه المحاولة ظلت محاولة فردية تماما . وفي القرن التاسع عشر بدأ المرء يوجه قدرا أكبر من الاهتمام للتصورات العديدة التي تكونت في العصر الوسيط عن محمد .

رينو : -

وقد صاغ رينو في نشرته لرواية محمد[1] المهمة المطروحة في هذا الصدد أمام العلم في قوله : « إنه لمن الأمور ذات الفائدة أن تكون هناك قائمة دقيقة وكاملة عما كتب في صورة متتابعة حول موضوعات هامة من جانب مختلف الطوائف المسيحية . فبوسع المرء أن يلحظ في ذلك الأثر البطىء والحتمى لفعل العصور والأحداث والأماكن ، وبوسعه أن يلاحظ التأثيرات المختلفة التي تحدثها المعتقدات الخاصة والوضع الأخلاقى والسياسى والجوانب الحضارية المتقدمة أو المتخلفة » .

---

(١) صدرت هذه الطبعة في باريس عام ١٨٣١ ، والرواية في الاصل منسوبة إلى الكسندر دو بون من القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد رسم رينو باختصار بعض خطوط هذه الصورة . وفي البداية يقدم لنا لمحة عن التصورات التي اتخذها المرء عن شخص محمد وحياته بدءا من العصر الوسيط حتى عصر بايل وجانييه وجيبون . وبعد ذلك يتناول المؤلفات العديدة للمجادلات التي جرت حول ديانة محمد في الشرق والغرب ، ويقدم لنا باختصار بعض الخصائص المميزة لبعض هذه المؤلفات .

زيوليكى :-

ونظرا لأن طبعة « رواية محمد » لرينو وميشيل كانت قد نفدت فقد قام زيوليكى Ziolecki بنشرها من جديد[1] وأضاف اليها مقالة بعنوان « بحوث حول أسطورة محمد في العصر الوسيط » .

إدلستان دو ميريل :-

أما أساس « رواية محمد » لالكسندر دو بون A. du Pont فإنه يتمثل في « الأساطير الشعرية عن محمد » Otia de Mahomete لفالتيريوس Waltherius أو جوتييه الكومبينى[2] . وقد نشرها أول مرة إدلستان دو ميريل في كتابه : الأشعار الشعبية اللاتينية في العصر الوسيط » .

وقد أجمل الناشر في مقدمته لها بعض الخطوط المميزة لأسطورة محمد في الغرب والشرق . وقام بروتس بإخراج ونشر « أساطير محمد الشعرية » نفسها اعتمادا على مخطوطة أخرى وتناولها بإسهاب .

(١) صدرت هذه الطبعة في أوبلن Oppeln عام ١٨٨٧ .

(٢) نسبة إلى مدينة كومبين Compiegne الفرنسية .

دى لينسي : -

ويقدم لنا ليرو دى لنسى[1] Lincy بعض النماذج من أسطورة محمد في العصر الوسيط من أمثال ما ورد في تاريخ الأسقف تربين[2] ، و - « المرآة التاريخية » من تأليف فينسنس فون بوفيه ، وقصيدة الثعلب البغيض le Renard Contrefait والكتاب الذي ألفه اليهودى المتنصر الفونس المنتسب إلى اسبينا Spina بعنـوان Fortalitium Fidei .

جاس : -

أما جاس[3] فإنه يقدم لنا في البداية لمحة قصيرة عن الجدل المسيحى لكل من الغرب والشرق ضد محمد وضد تعاليمه ، هذا الجدل الذي يرى أنه يشكل القسم الرئيسى الثاني لدفاع الكنيسة المسيحية الموجه نحو الخارج .

وفي قسم ثان يصف التقاليد المسيحية فيما يتصل بحياة محمد وشخصه ، نظرا لأن الكتاب المحدثين لسيرة محمد من أمثال جانييه وتربين وأيضا فايل قد اعتمدوا في الغالب على أبى الفداء[4] وعلى مصادر شرقية أخرى .

---

(١) صدر كتاب دى لنسى في باريس عام ١٨٣٦ بعنوان : كتاب الأساطير .

(٢) صدر كتاب تربين بالفرنسية حوالى عام ١٧٧٣ بعنوان : تاريخ محمد مشرع العربية .

(٣) الكتاب الذي يعرضه بفاتمولار هنا من تأليف جاس هو كتاب : « الأرسطية والأفلاطونية في الكنيسة اليونانية ، مع بحث حول معارضة الإسلام في العصر الوسيط » وقد صدر في برسلاو عام ١٨٤٤ .

(٤) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، سليل أحد فروع الدولة الايوبية في مصر . ولد عام ٦٧٢هـ بدمشق ، تولى إمارة حماة ، وكان له نشاط علمى ملحوظ ، وقد اشتهر بوجه خاص بوصفه مؤرخا وجغرافيا . وأهم مؤلفاته كتابه « مختصر تاريخ البشر » وكتابه في « تقويم البلدان » وقد تناول في الكتاب الأول تاريخ ما قبل الإسلام ثم تاريخ الإسلام حتى عام ٧٢٩هـ . وقد طبع هذا الكتاب في مجلدين بالقسطنطينية عام ١٢٨٦هـ وترجمت أجزاء منه إلى اللاتينية والفرنسية والانجليزية . أما كتابه في « تقويم البلدان » فقد انتهى من تأليفه عام ٧٢١هـ .

وبعد ذلك عرض في القسم الثالث إلى الخامس تعاليم محمد والإسلام في مقارنة متواصلة بالتعاليم المسيحية وبصفة خاصة ما يتصل بالله والمسيح وتجسد المسيح والأسرار المقدسة والصلاة والصوم وفعل الخير والحج والقدر . أما الفصل الختامى فإنه يشتمل على « وجهات نظر حول القضاء والقدر » .

بروتس : -

وقد كانت أكثر الأعمال استفاضة من جانب بروتس Prutz في تناوله لموضوع « تصورات العصر الوسيط المسيحى عن محمد وتعاليمه » وذلك في الفصل الخامس من الكتاب الأول من مؤلفه « التاريخ الحضارى للحملات الصليبية »[1] ويبرز بروتس في بادئ الأمر مدى قلة المعلومات الصحيحة عن الإسلام التى تم الحصول عليها من خلال الاتصال الذي حدث عن قرب بين الإسلام والمسيحية سواء في أسبانيا أو في فلسطين أو في سوريا . فالمحمديون والمسيحيون يواجهون بعضهم بعضا بعد فترة طويلة من التعارف المتبادل وهم في حالة من انعدام الفهم مثلما كان الأمر لدى الاتصال الأول . فالصورة التى اتخذها المسيحيون في الغرب عن محمد وتعاليمه أصبحت كلما مر الزمن ازدادت كدورة عن طريق أسوأ الخرافات ، وفي النهاية شوهت تماما عن طريق أسخف التصورات الجنونية وأخبث الافتراءات .

وقد كان السبب الرئيسى لذلك هو أنه لم يكن هناك من سبيل إلى معرفة الإسلام إلا عن طريق السلطات الكنسية التي كان يهمها بطبيعة الحال أن تعرض تعاليم محمد في صورة منحطة وفاسدة بقدر الإمكان ، في حين أننا لم نكن نتوقع حكما موضوعيا نسبيا إلا من جانب أولئك الذين عاشوا لسبب من الأسباب فترة طويلة في سلام في وسط العالم المحمدى ، وبوجه خاص من جانب بعض المبشرين من أمثال فيلهلم الطرابلسى وريكولدوس دى مونت كروتسيس .

---

(١) صدر هذا الكتاب في برلين عام ١٨٨٣ . ولبروتس أيضا بحث بعنوان : « حول أساطير محمد لجوتييه الكومبيقى » من منشورات أكاديمية العلوم في ميونيخ عام ١٩٠٣ .

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية يصف لنا بروتس أولا آراء الغرب في محمد وفي تعاليمه . فبعد المحاولة التي قام بها اليهودى الأسبانى المتنصر بتروس الفونسوس لنقض القرآن في بداية القرن الحادي عشر ، تناول هـذا العمل بتعمق خـاص بطرس الموقر رئيس رهبان كلونى[١] Cluny الذي كـان صديقـا للقديس بـرنهارد المنتسب إلى كليرفو Clairvaux . وقد عمل بطرس الموقر في البداية على إنجاز ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية[٢] . وبالإضافة إلى ذلك أمر بترجمة كتابين آخرين أحدهما عن سيرة النبى والثاني عرض للنقاط الأساسية في تعاليم العقيدة المحمدية في شكل حوار .

وأخيرا قام بتأليف أربعة كتب « ضد الزندقة البغيضة لطائفـة المسلمين » . وهذه الأعمال التي قام بها هذا الرجل الكلونى المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبى ضد الإسلام فحسب ، بل أصبحت المصدر الرئيسى أيضا للتصورات غير المعقولة التي صارت فيما بعد مألوفة لدى المسيحين عن حياة محمد وتعاليمه . وإلى مؤلفات بطرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التي نشأت في العصر الوسيط ضد الإسلام ، سواء كانت نثرا أو في شكل شعرى أو في صيغة أخبار وتقارير حول المناقشات التي جرت ـ زعما كان ذلك أو حقيقة ـ بين رجال الدين المسيحيين والمحمديين . وفي هذه المناقشات يظهر محمد ليس فقط نبيا زائفا ومضللا ، وإنما أيضا محتالا وضيعاً ومن عشاق اللذة[٣] .

ومن بين التصورات التي كانت منتشرة بصفة خاصة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمدا لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل

---

(١) بطرس الموقر (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) راهب فرنسى ينتمى إلى جماعة الرهبانية البندكتية التي شيدت دير كلونى عام ٩١٠ في فرنسا . قصد الأندلس فيمن قصدها مستزيدا من علومها ، وكان الرهبان الأسبان قد جعلوا من دير كلونى في القرن الثاني عشر مركزا خطيرا لنشر الثقافة العربية .

(٢) تمت هذه الترجمة عام ١١٤٣م على يد العالم الانجليزى روبرتِ أوف كيتون بإيعاز من بطرس الموقر .

(٣) إذا كان هناك قدر كبير من هذا الهراء يعود في أصله إلى أباطيل الأب بطرس « الموقر » فلست أفهم سببا معقولا لوصفه بالموقر ، إذ أن ما قام به ـ من وجهة نظر موضوعية ـ هو افتئات على الحقيقة وجريمة في حق التاريخ وتضليل متعمد وكذب صريح . فهل يبقى بعد ذلك مكان لوصفه بالتوقير والاحترام ؟ .

الألوهية . وبالإضافة إلى ذلك وُصِف دين محمد ـ على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية ـ بأنه دين الشرك وتعدد الألوهية . وقد اتهم المحمديون أيضا ـ دون سند تاريخى ـ بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة ، وكذلك كان المرء يهزأ من أمية النبي ويسخر من الراعى السابق للإبل والحمير[1] .

ولابد أن يعود هذا الجهل التام وسوء التقدير للإسلام ـ رغم الاختلاط الكثير المباشر ـ إلى حد ما إلى أن التعرف الأول على الإسلام قد تم عن طريق وساطة لا يوثق بها إلا قليلا ، أعنى عن طريق البيزنطيين .

وترجع أقدم التقارير التاريخية التي لدينا عن نشأة الإسلام إلى تيوفانس البيزنطى . وقد عرضه أمين المكتبة الرومانى أناستاسيوس في كتابه عن تاريخ الكنيسة . وإلى هذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التي قيلت عن محمد في العصر الوسيط .

وبعد ذلك قدمت الحملات الصليبية دافعا جديدا . ومن هنا اتخذت صورة محمد باستمرار لونا أشنع من ذى قبل . وعرضت باستمرار بصورة أكثر فظاعة . ويقدم لنا أولا جيبير النوجنتى Guibert de Nogent Sous-Coucy صورة شاملة . وكثيرا ما عرضت أسطورة محمد أيضا فى صورة شعرية ، وهكذا قام هيلديبرت المنتسب إلى ليمو Lemans والذى كان فيما بعد رئيسا لأساقفة تور Tours (توفى عام ١١٣٣ م) قام بكتابة تاريخ محمد فى صورة شعرية معينة Distichen تتضمن ذكريات كلاسيكية وقد ظهرت فيما بعد قصيدة مشابهة وهى« أساطير محمد لدى

(١) لسنا في حاجة إلى التعليق على هذه التصورات الباطلة ، فهى ـ كما يقول بفانموللر ـ تصورات تناقض الحقيقة التاريخية وتفتقد أى سند تاريخى . وقد كان البيزنطيون ـ كما يقول بفانموللر بعد قليل ـ هم أول من أذاع في الغرب معظم الأساطير التي شاعت حول محمد والإسلام .

ويبقى أن نشير إلى أن أمية محمد عليه الصلاة والسلام والتي أشار إليها القرآن في آيات عديدة كانت من دعائم الإعجاز ، فهى مناط فخر وبرهان صدق على دعوته لامثار سخرية واستهزاء . أما رعيه صلى الله عليه وسلم للإبل أو الغنم فلم يكن في ذلك بدعا من الرسل ، فقد مارسوا جميعا رعى الغنم وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » ـ رواه البخارى ـ ويقول أيضا : « كنت أرعى غنم أهلى » ـ رواه الترمذى ـ وليس في ذلك سبة أو منقصة كما يفهم الجاهلون بقدره وقدر الأنبياء جميعا .

فالتيرى Otia Walteri de Mahomete وعلى هذه القصيدة اللاتينية تعتمد اعتمادا تاما رواية محمد Roman de Mahomet التى كتبها الكسندر دو بون du Pont .

وفى العرض الذى قدمه لنا أندريا داندولو الفينيسي تتجمع عناصر الأساطير البيزنطية عن محمد ، مع الاختراعات التى يجب ان توضع على حساب خيال المحاربين الصليبيين وعلى حساب قادتهم الروحيين .

ونحن نجد التجميع الكامل لكل ما يتعلق بمحمد من أساطير وخرافات ومخترعات افترائية للعصر المسيحى الوسيط فى كتاب فينسينز Vincenz (المنتسب إلى بوفيه) Beauvais والمسمى « المرآة التاريخية Speculum historiale

وهناك حكم أكثر موضوعية إلى حد بعيد عن محمد والإسلام نجده لدى الراهب الواعظ فيلهلم الطرابلسي الذى يبدو أنه قد اغترف كثيرا من المصادر الشرقية ، وفى وسعه أيضا أن يطلعنا على معلومات هامة حول نشأة القرآن .

أما جيرهارد الاشتراسبورجى[1] الذى ذهب إلى صلاح الدين فى عام ١١٧٥ م بتكليف من القيصر فريدريك الأول - فإن التقرير الذى وضعه حول أخلاق وعادات المحمديين يبرهن ليس فقط على ملاحظات جيدة ، بل يبرهن أيضا على حكم متسامح وموضوعى .

وهناك حكم أكثر تسامحا وموضوعية نجده فى العرض المسهب لعقيدة المحمديين وحياتهم وأخلاقهم نذكره بالفضل للراهب الواعظ ريكولدوس دى مونت كروسيز Recoldus de Monte Crucius الذى كان له نشاط فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، والذى عاش سنوات طويلة مبشرا بين المحمديين ولكن مثل هذه الأحكام والمعارف تصادفنا منفردة نسبيا فى العصر الوسيط .

وعلى العموم فإن فى وسع المرء أن يدعى « أن الكفاح المرير الذى قاده العصر المسيحى الوسيط بالسلاح وبالجدل اللاهوتى ضد تعاليم محمد وضد اتباعه ، قد تم دون أية معرفة كافية بالخصم ودون أية فكرة عن ماهيته وطبيعته : فالإسلام الذى انطلق العصر المسيحى للقضاء عليه لم يكن له وجود فعلى فى يوم من الأيام » .

---

(١) نسبة الى مدينة اشتراسبورج الفرنسية .

تلك كانت الخطوط الرئيسة للعرض المسهب الذى قدمه بروتس ، هذا العرض الذى كان ينبض بالحيوية عن طريق الاقتباسات الوافرة من المؤلفين المعنيين والذى اكتمل بالأسانيد المصدرية المفصلة وبالأدلة .

دانكونا :

تمثل بحوث دانكونا D'Ancona المسهبة تكملة ممتازة لعمل بروتس وقد قادته دراساته المقارنة فى الآداب الرومانية إلى طرح سؤال حول نوع المعرفة التى كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمد[1] .

وعلى أساس من اطلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لأسطورة محمد فى العصر الوسيط ، تلك الصورة التى عرض شوفان بعض خطوطها ببراعة فائقة فى مؤلفه الببليوجرافى(قارن أيضا النقد المفصل لرينان فى مجلة العلماء Journal des Savants ١٨٨٩ م ص ٤٢١ - ٤٢٨)

ويتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسيحية على محمد (الراهب بحيرى)[2] والأخبار المختلفة حول وفاة محمد ، ويبين دانكونا الوحدة المميزة لهذه الأساطير منذ زمن المؤرخ البيزنطى تيوفانس وطبقا لهذه الأساطير يظهر محمد على

---

(١) يرجع في ذلك إلى البحث الذي نشره دانكونا في العدد رقم ١٣ من المجلة التاريخية للآداب الايطالية بعنوان « أسطورة محمد في الغرب » من ص ١٩٩ إلى ٢٨١ ، عام ١٨٨٩ .

(٢) بحيرى : راهب نصرانى ، كانت له صومعة في بصرى من أعمال الشام على طريق القوافل ، وقد مر به محمد صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثانية عشرة من عمره مع عمه أبي طالب ، فعرفه ببعض ملامحه وقال « سيكون لهذا الغلام شأن عظيم » وأوصى عمه بحمايته .

ويصر بعض المستشرقين على تضخيم أثر مقابلة الرسول عليه الصلاة والسلام لبحيرى رغم أنه لا يوجد لذلك سند صحيح . وقد قال هوارت في بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال » .

(راجع : مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٤ - هامش ١ ، دار القلم بالكويت ١٩٧٤ ، وانظر كتابنا : الاستشراق ص ٨٥) .

أنه زنديق ، وأنه أريوس جديد أسوأ من أريوس الأول[1] . وأسطورته تنهج نهج أسطورة الزنادقة الكنسيين الكبار من أمثال سيمون ماجوس أو نيكولاوس ★* .

وتضيف المؤلفات الشعبية إلى ذلك افتراءات شنيعة ، ولكن هناك بجانب ذلك أقوالا إيجابية أيضا . ونظرا لأنه قد حيل بين محمد وبين منصب البابوية الذى يستحقه ـ نظير خدماته التى أداها بجعل قسم كبير من العالم يدين بعقيدة الإيمان بإله واحد ـ فقد تحول إلى منشق على الكنيسة[2]

---

(١) آريوس (٢٧٠ ـ ٣٣٦م) ولد في الاسكندرية وكان قسيسا بها ، وقد عارض أسقف الاسكندرية الذي كان يذهب إلى القول بأن المسيح ابن الله وأنه مساو للآب وأن له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب . وقد ذهب آريوس إلى القول بأن المسيح غير مساو للآب في الجوهر والعظمة وأنه مخلوق بإرادة الآب حادث غير أزلي . . الخ . وقد تبع آريوس كثيرون ، وعندما طرد من الاسكندرية خرج قاصدا فلسطين وسوريا فتحزب له أساقفة كثيرون في تلك الجهات ولا سيما أسقف قيصرية وغيره من أساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها .

وقد عقدت عدة مجامع كنسية لمناقشة تعاليمه منها مجمع الاسكندرية عام ٣١٩ ، ومجمع نيقيه عام ٣٢٥ بأمر الامبراطور قسطنطين ، ومجمع القسطنطينية عام ٣٣٦ . وعلى الرغم من أن الغلبة في النهاية استقرت لآراء مخالفيه الذين جعلوا من المسيح إلها وقالوا بالتثليث فإن تعاليمه قد انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت في حياته ، واعتنق الملك قسطنس خليفة قسطنطين آراء آريوس . وقد أمر قسطنس بعقد مجمع في مديولان (ميلان) حضره اكثر من ثلاثمائة أسقف ، وتبين أن اكثرية الآراء فيه كانت للآريوسيين . وقد بقيت التعاليم الآريوسية ممتدة في أسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ثلاثة قرون .

ولكن عندما وقع الانشقاق بين الآريوسيين وانقسموا إلى فرق عديدة ضعفت قوتهم وتمكن منهم خصومهم . وفى أيام ثيودوسيوس الثاني صدر الأمر باستئصال الآريوسيين وإبادتهم ، وكان ذلك في عام ٤٢٨م . ويقال إن سرفتس أحيا تعاليم الآريوسية في القرن السادس عشر فذاعت هذه التعاليم وسببت إزعاجا للكنيسة التي سارعت بالقضاء على معتنقيها . (راجع دائرة معارف البستاني) .

والأمر الجدير بالذكر هو أن الرأى الذى كان يقول به آريوس هو الرأى الذى يعتبره القرآن الكريم العقيدة المسيحية الصحيحة التي ترفض التثليث وترفض ألوهية المسيح . ومن هنا جاء هذا الاتهام الموجه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه آريوس جديد لأنه أكد بنص القرآن بشرية المسيح ورفض ما عدا ذلك من تعاليم مصطنعة .

ولبعض العلماء نظرة ثاقبة في تفسير لفظ « الأريسيين » الذي ورد في رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قيصر الروم ، والتي جاء فيها : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين » ويذهب هذا البعض من العلماء إلى أن المقصود بالاريسيين هنا هم أتباع آريوس القائلين بالعقيدة المسيحية الصحيحة . وهذا تفسير ذكى أقرب إلى العقل والمنطق من كل ما عداه من تفسيرات أخرى .

(٢) هذه أسطورة مضحكة لا تستحق الوقوف عندها .

ويبين دانكونا بعد ذلك كيف أن جزءا من أسطورة محمد ـ ذلك الذى يتصل بأصل محمد وعلاقاته بالمسيحية واليهودية ـ يبتعد قليلا عن الحقيقة التاريخية [1] . ولكن بمرور الزمن تبتعد الأسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخية ، ويصبح محمد مشابها لنيكولاوس وبلاجيوس * ، أجل ، فالبعض كان يرى أن الإسلام قد انبثق من النزاعات الداخلية الخبيثة للكرادلة الرومانيين ! وأخيرا تبقى الأسطورة عند موت محمد مع إحساس بنوع خاص من الغبطة . فالخنازير قد التهمته وهو فى حالة سكر ! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين [2] .

كاسترى :

يتناول كاسترى [3] فى كتابه عن الإسلام فى ملحق خاص « فكرة العصر الوسيط عن محمد والديانة الإسلامية » . ويزعم خطأ أن هذا الموضوع لم يتناوله أى مؤرخ من مؤرخى العصر الوسيط . وإذن فهو لا يعرف لا تلك الأعمال المشار إليها لكل من ليرو دى لنسى ، ودو ميريل ، ولا العرض المسهب لكل من بروتس ودانكونا .

---

(١) هنا إشارة خفية إلى أن هناك تأثيرا يهوديا مسيحيا على محمد ورسالته . وهذه نغمة قديمة سائدة في معظم الدراسات الاستشراقية حول الإسلام. (انظر في ذلك كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨١ وانظر أيضا كتابنا : الاستشراق ص ٨٤ وما بعدها) .

(٢) الأسطورة لا عقل لها ، وهي في الأصل قصة خرافية من نسج الخيال . ولكن الأمر الغريب هنا هو أن الغرب كان يصور لنفسه هذه الأساطير وكأنها حقائق ، ولهذا كان المرء يستسلم لهذا الشعور الكاذب بالغبطة لما تحمله هذه الأساطير من أمنيات كاذبة ترضى في نفسه نزعات معادية للإسلام ونبيه .

(٣) هـ . دى كاسترى (١٨٥٠ ـ ١٩٢٧) ، ورد في ترجمته لدى نجيب العقيقى أنه كان مقدما في الجيش ومهتما بالدراسات المغربية ، وأنه قد اشترك في إصدار مجموعة بعنوان « مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب » . ولم يذكر له العقيقى كتابا عن الإسلام . ولكن بفانموللر يعتمد في حديثه عن دى كاسترى هنا على كتاب له عن الإسلام بعنوان L'Islam وقد صدر في باريس عام ١٨٩٦ .

ولكاسترى بعض أقوال إيجابية عن الإسلام وقد اتهم بأن رأيه في محمد إيجابي أكثر مما ينبغى (انظر في ذلك البحث الذى نشرناه في العدد الثانى من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر ص ١٤٥/١٤٦) .

ولا يقدم لنا عمل كاستري شيئا جديدا إلا القليل ، وحكمه على المعرفة التى كانت لدى لاهويتي العصر الوسيط عن الإسلام ليس دائما حكما صائبا (قارن النقد التفصيلى لرينيه باسيه فى مجلة تاريخ الأديان ٣٥ ، ١٨٩٧ ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

شرودر :

أما ر . شرودر فإنه قد جمع الخطوط الرئيسة لأسطورة محمد فى العصر الوسيط . كما تتمثل فى الشعر الفرنسى القديم[1] .

وحسبما ورد فى هذا الشعر فإن محمدا وحده هو صاحب نظرية التعدد فى الألوهية بكاملها ، تلك النظرية التى يقول بها المسلمون ، وفى الأساطير الشعبية الأصيلة لا يظهر محمد أبدا بوصفه نبيا ، وإنما يظهر باستمرار بوصفه إلها ، وعلى وجه التحديد بوصفه أعظم وأقوى الآلهة الوثنية . وقبل أن يتحول محمد إلى هذا الاعتقاد كان مسيحياً مؤمنا ، وكان هو نفسه يؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية .

ويعد محمد لدى الوثنيين خالق هذا العالم وحافظه . وتحدث عبادته بطبيعة الحال فى شكل عبادة التماثيل ، هذا الشكل الذى اعتادته جماعة المحمديين . وكما هو الحال مع إله المسيحيين فإن محمدا محاط أيضا فى السماء بالقديسين . ومثلما تعد القدس مدينة مقدسة بالنسبة للمسيحيين فكذلك تعد مكة مدينة مقدسة بالنسبة للوثنيين . حيث يوجد داخل أسوارها قبر إلههم . أما العيد الكبير السنوى الذى يقام لتمجيد محمد فيوصف بأنه يتوافق مع عيد الفصح .

وأشد التناقضات بين المؤسسات المسيحية والوثنية تتمثل فى رأى الجانبين فى الزواج . والمحمديون يكرهون إله المسيحيين ، وكذلك لا تعرف كراهية المسيحيين لأتباع محمد حدودا تقف عندها . فالمسيحيون يشككون بشتى الطرق الممكنة فى طهارة محمد من الذنوب أثناء حياته الأرضية . وتروي بشغف خاص قصة موته الذى يرثى له - فالخنازير قد وجدته مخمورا فوق كومة من القمامة

---

(١) يرجع في ذلك إلى كتاب شرودر الذي صدر بالالمانية في ارلانجن عام ١٨٨٦ بعنوان « العقيدة والخرافة في الأشعار الفرنسية القديمة » .

فالتهمته[1] .

دريسباخ :

اهتم دريسباخ فى رسالته للدكتوراه برسم صورة للشرق وساكنيه كما صورها أدب الحملات الصليبية الفرنسى القديم [2] . فعلى النقيض من الملاحم الفرنسية القديمة Chansons de geste التى كانت لا تزال تعرض المسلمين كما كانوا يوصفون لنا قبل الحملات الصليبية فإنه بوسعنا أن نعرض صورة حقيقية عن الشرق من أدب الحملات الصليبية . فالمسلمون الذين يصفهم هذا الأدب هم مسلمون حقيقيون من لحم ودم . صحيح أننا لا نزال نجد فى هذه الكتابات تصورات خاطئة عن محمد وعن الإسلام ، ولكنهما مع ذلك يعرضان بطريقة مختلفة تماما بما يتفق كثيرا جدا مع الحقيقة التاريخية . فمحمد لم يعد يظهر بوصفه إلها وانما بوصفه نبيا ومؤسسا للإسلام ، وقد أصبحت أهم وصاياه الرئيسه وأهم النقاط فى تعاليمه معروفة . وقد برز الفرق واضحا بين السنة والشيعة . وهناك اهتمام خاص يثيره الحشاشون وزعيمهم « شيخ الجبل »[3]

---

(١) الأسطورة ـ كما سبق أن أشرنا ـ لا عقل لها ، ولذلك لا يعجب المرء من انتشار مثل هذه الغرائب المنكرة حول محمد صلى الله عليه وسلم وحول دينه في عصر كان يعتمد في فهمه للإسلام ونبيه على مثل هذه الخرافات التي روجت لها السلطات الكنسية . وأعتقد أن القارئ لا ينتظر منا أن نقف طويلا عند مناقشة ما جاء في هذه الأساطير من تفصيلات ، إذ يكفي أنها أساطير لا أصل لها .

(٢) ظهرت هذه الرسالة الجامعية بالألمانية في برسلاو عام ١٩٠١ بعنوان « الشرق في الأدب الفرنسى القديم للحملات الصليبية » .

(٣) الحشاشون اسم يطلق على ذلك الفريق من الإسماعيلية الذين كانوا يحتلون أيام الحروب الصليبية الحصون الجبلية في الشام وغيرها ، والذين جروا على التخلص من أعدائهم بالاغتيال . ومؤسس هذه الجماعة السرية الخطيرة هو الحسن بن الصباح . ويبدأ تاريخ الحشاشين بفتح الحصن الجبلى « الموت » على يد الحسن بن الصباح عام ٤٨٣هـ . ويقال إنه أنشأ هناك حدائق غناء كان الفدائيون يتمتعون فيها بالملاذ التي يتوقعون التنعم بها في الفردوس . ولكن الذى لا ريب فيه أن جنتهم تلك كانت محض خيال يصوره لهم الحشيش الذى كانوا يدخنونه .

وفى عام ٥٣٥هـ فتحوا عددا آخر من الحصون في شمال بلاد الشام وغيرها . وكان رأس هؤلاء الحشاشين الشاميين المؤقت يدعى « شيخ الجبل » وقد قضى المغول عليهم ، واحتل جنود هولاكو قلعة « الموت » عام ٦٥٤هـ ولكن الضربة القاضية التي قضت تماما على السلطان السياسى لهذه الفرقة المروعة كانت على يد سلطان المماليك بيبرس عام ٦٧١هـ . (راجع دائرة المعارف الإسلامية) .

دوتيه :

يتناول دوتيه الخرافة التى انتشرت انتشارا واسعا فى العصر الوسيط والتى تقول بأن محمدا كان فى الأصل كاردينالا رومانيا يسعى للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل فى الحصول عليه أسس الطائفة المحمدية وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية(١) .

باسيه :

أما باسيه (٢) فقد تناول بالبحث العميق أسطورة أخرى عن محمد كانت هى الأخرى منتشرة أيضا انتشارا واسعا فى العصر الوسيط ، وتقول هذه الأسطورة إن القيصر كارل الكبير قام بتحطيم كل تماثيل الآلهة التى كانت قائمة فى أسبانيا ماعدا تمثالا واحدا فقط كان موجودا فى قادس(٣) Cadix ويروى المسلمون أن محمدا نفسه قد قام بعمل هذا التمثال أثناء حياته باسمه هو وأنه بفضل ما لديه من فن سحرى قام بحبس كتيبة من الجن بداخله . وقد عملت هذه الكتيبة بما لها من تأثير على منع تحطيم هذا التمثال من جانب أي أحد يريد تحطيمه .

(١) لقد تناول ادموند دوتيه هذه الموضوعات في كتابه بالفرنسية « محمد الكردينال » الصادر في باريس عام ١٨٩٩ .

(٢) رينيه باسيه (١٨٥٥ - ١٩٢٤) مستشرق فرنسي ، نشر العديد من الأبحاث والدراسات الإسلامية والعربية والبربرية والحبشية في مجلات علمية كثيرة ، ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ، وأسهم في دائرة المعارف الاسلامية ، وكان عضوا في العديد من المجامع العلمية . والبحث الذى يشير اليه بفانموللر هنا هو البحث الذى نشره باسيه بعنوان « هرقل ومحمد » عام ١٩٠٣ في مجلة العلماء من ص ٣٩١ حتى ص ٤٠٢ .

(٣) قادس مدينة اسبانية وهى عاصمة إقليم قادس ، ويسكنها حوالى ١٣٦٠٠٠ نسمة ، وهى مدينة قديمة يرجع تاريخ إنشائها إلى عام ١١٠٠ قبل الميلاد .

وقد أثبت باسيه بالتفصيل انتشار هذه الأسطورة في المصادر المسيحية والعربية والاسكندنافية ، وبرهن على ان الأمر هنا يدور ـ على الأرجح ـ فى الأصل حول تمثال لهرقل ظن المحمديون خطأ أنه يرمز إلى محمد . ثم انتقلت الأسطورة عن طريق المسلمين إلى المسيحيين فى أسبانيا . ومن هناك تسربت إلى الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط[1] .

(١) إذا رويت هذه الاساطير على ألسنة الغربيين ودونت في مؤلفاتهم فهذا أمر مفهوم وقد اعتدنا عليه . أما أن يقال إن المسلمين أنفسهم قد قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دون فيها هذا الباطل فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتي : ـ

أولا : المسلمون يعرفون تماما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حرم التماثيل لأنها تذكر بالأصنام من ناحية ولأن فيها محاكاة لخلق الله من ناحية أخرى . وقد ورد في هذا الصدد العديد من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما وراه مسلم في صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه تماثيل أو تصاوير » . وقوله : « يا عائشة : أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وفى رواية أخرى « . . . الذين يشبهون بخلق الله » فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد ـ أن ينسب المسلمون إلى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالا أو أوعز بصنعه ؟ وقد يقال إن بعض العلماء فى العصر الحديث قد قال بتأويل مثل هذه الأحاديث . ولكن هذا التأويل لم يكن بالقطع قائما لدى المسلمين في الأندلس .

ثانيا : المسلمون يتحرجون حتى اليوم ـ بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على ظهور الإسلام ـ من مجرد ظهور شخصيات تمثل أدوار أحد من الصحابة في مشاهد هادفة ، ناهيك عن إقامة تماثيل لهم . فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . وإذا كان هذا شأن المسلمين اليوم حيث تنتشر التماثيل في كل مكان وحيث أصبح التمثيل أمرا مألوفا فما بالك بالمسلمين منذ قرون عديدة ، وفي بلاد أحرقت كتاب الإحياء للغزالى ظنا منها أنه ربما يحمل أفكارا فلسفية لا يرضى عنها الإسلام .

إن الأمر الأقرب الى المعقول هو أن هناك أسطورة كانت قائمة قبل أن يدخل المسلمون إلى هذه البلاد ، ثم حورها الأوروبيون أنفسهم ـ وإيمانهم بالأساطير كان شديدا في العصر الوسيط ـ وروجوها على ألسنة المسلمين .

